كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

هذا هو الحب

● ستندال ● صوفى عبد الله



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عباد

العدد ٣٢٧ – ربيع الاول ١٣٩٨ – مارس ١٩٧٨

No. 327 — Mars 1978

مركز الادارة

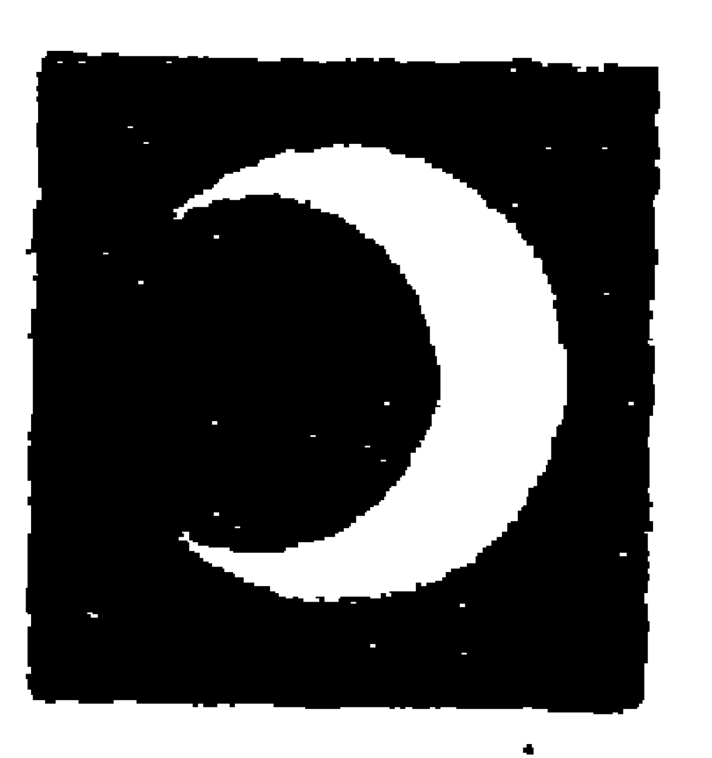
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادي البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢ر٥ جك – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والأسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الأسعار المحددة عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــــلاف بريشة
الفنان جمال قطب

هذا هو الحب

تأليف
ستندال

•

ترجمة
صوفي عبد الله

•

دار الهلال

مقدمة

عبثا يزعم بعض المؤلفين انهم فى مقام الاعتذار الى القراء والتماس اعفائهم ، لأن الاقدام على النشر فى حد ذاته تكذيب قاطع لهذا التواضع المزعوم . وأعتقد ان الأولى بالمؤلف أن يلجأ الى مناشدة القراء العدل والصبر والنزاهة غير المنحازة . وهذا ما يلجأ اليه فعلا مؤلف هذا الكتاب ، ولا سيما النزاهة غير المنحازة . ففى نيته أن يعرض فى هذه الصفحات الأمور على ما هى عليه فى الواقع ، بدون تحيز بدافع وطنية مزعومة ، غير مبد تقديره واحترامه الا لما هو حقيقى وصادق أيا كان موطنه ، غير متذرع بتلك الروح المحلية التى غالى بعض الكتاب فيها أخيرا ، وحولوها الى فضيلة . فماذا يكون من أمر التاريخ والأخلاق ، بل والعلم ، والآداب أن جعلها الألمانى ألمانية ، والروسى روسية ، والايطالى ايطالية ، والانجليزى انجليزية ، وهلم جرا ، بحيث يتغير كل معيار متى عبرنا نهر الراين ، أو اجتزنا جبال الألب ، أو عبرنا المانش ، وماذا يكون من أمر الحقيقة والعدالة الجغرافيتين ؟ ان هذا التحيز الأعمى لكل ما يتعلق بالوطن ، هو الباعث وراء كل التصرفات الدموية والعدوانية بين الشعوب ، وتلك همجية آن للبشر المتحضرين أن يطرحوها جانبا ويرتفعوا فوقها الى كلمة سواء ، هى الحق الموضوعى أو العدل الموضوعى ، الذى يتغذى به العقل ، ويقوم عليه العلم والأدب الصحيحان .

المؤلف

الفصل الأول :

أنواع الحب ...

سأحاول في هذه الصفحات أن اتعرض بالتوضيح لتلك العاطفة التي تتسم جميع أطوارها بالجمال . والواقع اني أجد الحب على أربعة أنواع مختلفة :

١ - الحب العاطفي ، ومثله ذلك الحب الذي تجده عند الراهبة البرتغالية ، أو حب الويز لابيلار ...

٢ - حب الرغبة أو الاستحسان ، وهو ذلك الحب الذي يسود الأوساط المترفة ، وكانت باريس مرتعا له حوالي عام ١٧٦٠ ، ونجده متمثلا في مذكرات وروايات تلك الحقبة ، (عصر لويس الرابع عشر ، والخامس عشر) . وهذه الكتابات أشبه بلوحة يجب أن يكون كل شيء فيها - حتى الظلال الداكنة - في لون الورد ، بحيث لا يدخل في مكوناتها شيء غير سار لأي ذريعة من الذرائع ، وألا عد ذلك من فساد الذوق ، والجلافة ، والخروج على العرف العام . وكل شاب أو رجل رفيع المولد ، كريم الأصل والنشأة يعرف مقدما جميع الحيل والأفانين التي ينبغي أن يواجهها في مراحل هذا الحب المختلفة . فهو حب خال من كل عاطفة صادقة ، وبالتالي خال من كل ما هو غير متوقع سلفا . ولكنه كثيرا ما ينطوي على اعمال اللطافة والرقة بصورة تتفوق على الحب الحقيقي لأنه يحتاج

دائما الى أعمال الحيلة ، والذكاء ، وسرعة البديهة ، ان نسبته الى الحب العاطفي الحقيقي، كنسبة الحرفة المتقنة الى الفن الأصيل الخلاق . ففي حين يجرف الحب الحقيقي في طريقه جميع الأغراض والمصالح الشخصية ، نجد حب الرغبة أو الاستملاح أو اللباقة يتحرى هذه المصالح الشخصية ويعززها . فلو اننا جردنا حب الرغبة أو الاستملاح من عناصر الزهو والغرور وحب المظاهر لما كاد أن يبقى منه شيء ، فهو حب هزيل حقا ، اذا ساجرد من الغرور والاثرة كان أشبه بالمريض المتداعي الذى لايكاد يقوى على جر ساقيه.

٣ ـ الحب الجسدى .. ولعل أبرز مثل له أن يعثر المرء أثناء ممارسة هواية الصيد في الأحراش أو الغابة بفلاحة صبية ناضرة ريانة الحسن تفر منه في الغابة فتسخن دماؤه ويلاحقها لينال منها بين الأشجار وطره. والناس جميعا يعرفون الحب القائم على هذا النوع من الملذات . ولعل هذا اللون الرخيص التعس من الحب هو الذى يبدأ به الشبان منذ السادسة عشرة .

٤ ـ الحب القائم على الزهو والغرور . ومعظم الرجال ولاسيما في فرنسا يشتهون امرأة ما ويتهافتون على الحصول عليها لا لشيء الا لأنها من سمات «الموضة» في مجتمعها ، على نحو ما يتهافتون على الحصول على حصان طارت شهرته ، لا حبا في الفروسية ، بل حبا في التظاهر والتفاخر والتباري في علامات الأبهة والوجاهة . وما يرضي غرور الواحد من هؤلاء ويكبت أو يحنق غرور نظرائه هو ما يولد لديه الحرارة والحماسة والنشوة للظفر بتلك المرأة المرموقة . وكثيرا ما يخلو هذا الحب من أتفه عناصر اللذة الجسدية

نفسها . أليس حب الغرور والتفاخر يدفع الرجل الذى لا يهوى الفروسية ولا يمتطي صهوة جواد الى الحصول على حصان طارت شهرته لا لشيء الا لأن النـــاس يتهافتون على اقتنائه؟ وهذا هو السر فى تطلع البورجوازى الى دوقة ما ، لا لجمالها المثير ، بل لأنها الدوقة ! أو تهافت الأثرياء من التجار على راقصة أو ممثلة معينة مشهورة ، كتهافتهم على اقتنـــــاء التحف ولوحات المشاهير ، لا عن ولع بالفن ، بل حبــا فى المنافسة ، ويروى أهل بلاط لوى ملك هولندة حكاية تلك المرأة الحسناء من بنات مدينة لاهاى التى كانت ترى الحسن كله والفتنة كلها فى كل من يقال لها انه دوق أو أمير ، ولو كان فى الحقيقة دميما مسنا ، أو أحد خدم القصر! وقد تتعلق بدوق حقيقى وتلتصق به ، ولـكن متى وفد على البلاط أمير وبلغ ذلك مسامعها نبذت الدوق وشرعت تنشد الحظوة لدى الأمير ، حتى قبل أن تقع عليه عيناها !

وأقصى ما يصاحب التوفيق هذا النوع من الحب ، حينما تتوثق اللذة الحسية فيه بحكم العادة والألفة ، فتعمل الذكريات عندئذ على تزويده بما يشــبه الحب بعض الشيء . وعنــدئذ تتــأذى النفس وتجرح عزتها ويستولى عليها الأسى عنــد وقوع الفرقة أو الهجر ، وتمسك بتلابيب المرء تلك المشـــاعر التى تحفل بها الروايات ، فيحسب انه عاشق حقا ، لأن الغرور يتطلع بصاحبه دائما الى الاعتقاد بأنه فى حالة حب حقيقى . فمن المقطوع به انه أيا كان نوع الحب ، فمتى اهتزت له الروح ، وتحركت له النفس ، صارت لذاته متوقدة ، وصارت ذكرياته ذات سلطان . وعندئذ يخال المرء ان

ما فاته وما خسره أسمى وارقى من كل ما يتوقعه .

واللذة الجسدية تستمد مصـــــدرها من الطبيعة البشرية ذاتها، ولذا يعرفها الناس جميعا ، ولكن مرتبتها هابطة فى نظر النفوس الرقيقة المشبوبة العاطفة. وهؤلاء العاطفيون كثيرا ما يكونون عاثرى الحظ فى المجتمعـات التى يسودها حب التظاهر ، لأن أصـحاب العواطف الباردة اقدر منهم على المناورات وحيل التظرف وأفانين الغزل المصطنع . ولـكن هؤلاء العـاطفيين اقـدر على الشعور بلذات نفسية لا يتذوقهـا المزوقون من أهـل التظرف واللباقة ، أو أهل التفاخر وسـباق الزهو ، أو طلاب اللذة الحسية العابرة .

ويغلب على النساء العفيفات الرقيقات الا تكون لديهن اى فكرة عن اللذات الجسدية ، فقلما يتعرضن لها ، بيد أن اجنحة الحب العاطفى تحلق بهن فى آفاق عالية تـكاد تنسيهن لذات الجسد .

وهناك رجال يستعبدهم التكبر الشيطانى ، ومن ثم يتسمون بالقسوة الشديدة ، ومن أشهرهم فى التاريخ نيرون . وهم لايستطيعون الوصول الى اللذة الجسدية الا اذا صاحبتها أعنف مظاهر ارضاء الـكبرياء ، أى الا اذا مارسوا القسوة على الطرف الآخر فى هذه اللذة .

ولا يفوتنا ان نقول ان تداخل هـذه الانواع الأربعة من الحب ، بحيث يكون فى اى نوع منها طرف من نوع آخر ، يمكن ان يخرج لنا من هـذه الأنواع الرئيسية ثمانية انواع أو اكثر . ولـكن تلك القائمة من التنويعات لا تغير شيئا من الأحكام الأساسية الخاصة بكل نوع من الأنواع الأربعة .

الفصل الثاني :

ميلاد الحب...

اليك ما يجرى فى النفس عند ميلاد الحب :

١ ــ الاعجاب .

٢ ــ يقول المرء لنفسه : ما ألذ واشهى أن يقبلها المرء ، وأن يتلقى قبلاتها !

٣ ــ الأمل . وهنا يدرس المرء المحاسن ومواطن الفتنة . وحتى أشد النساء تحفظا تحمر عيونهن فى لحظة الأمل هذه ، لأن العاطفة فيها تقوى ، واللذة تتقد ، بحيث تفضحهما امارات كثيرة ظاهرة .

٤ ــ ميلاد الحب . فالحب معناه التلذذ بالنظر ، واللمس ، وسائر الحواس ، وبالقرب الى أقصى حد ممكن من الشخص الذى نحبه ويحبنا .

٥ ــ التبلر المبدئى . وفيه يطيب للمرء أن يخلع ألوف المحاسن والمفاتن على المرأة التى تأكد من حبه لها ، ويلذ له أن يدخل فى تفصيلات هنائه المرتقب بها ويجد فى ذلك متعة لا حد لها . وكأنما هو يبالغ فى مزايا ملكية خاصة به هبطت عليه فجأة من السماء ، ولا معرفة له بها من قبل ، ولكنه صار واثقا الآن من ملكيته لها . ولو دخلت رأس عاشق تهيم خواطره

أربعا وعشرين ساعة لوجدت شيئا شبيها بما يحدث في مناجم الملح بسالزبورج ، حيث يلقون في الأعماق المهجورة من تلك المناجم غصن شجرة جرده الشتاء من أوراقه جميعا . وبعد شهرين أو ثلاثة يستخرجون هذا الغصن وقد اكتسى تماما ببلورات متألقة كالماس يخطف لألاؤها الأبصار ، بحيث يعجز المرء عن التعرف على ذلك الغصن الأجرد الذى ألقى في أعماق المنجم قبل شهرين أو ثلاثة . وما أسميه أنا « التبلر » هو كسوة المحبوبة او المحبوب بأنواع من المحاسن التى لم تكن ترى فيه أو فيها من قبل، والتفنن في ذلك، بحيث يغدو هذا الشخص المحبوب غير ماكان تماما قبل ذلك الحين . فما أن يسمع العاشق عائدا من السفر يتحدث عن غابات البرتقال في جنوة المطلة على شاطىء البحر في ايام الصيف الحارقة ، حتى يقول في سريرته : « ما أشهى الاستمتاع بهذا الجو الساحر في صحبتها ، وقد غلب عبير اعطافها على رائحة أزهار البرتقال ، وامتزج العطران في انفى ! » . واذا سمع ان احد أصدقائه وقع من صهوة جواده وهو في رحلة صيد فكسرت ذراعه ، كان أول ما يتبادر لذهن العاشق : « الا ما أحلى هذه الاصابة كي أتلقى الرعاية والتمريض من فاتنتى ، وأحظى بعطفها ، وأرى الحنو في نظراتها ولمساتها ! » فذلك كله يجعل الذراع المهيضة والألم نعمة وبركة تحمد عليها السماء ، وتتمناها هذا المتيم ، في مرحلة تبلر الحب . فانه في هذه المرحلة لا يأتى ذكر مزية أو لمحة جمال وهناء الا وتخيلها في محبوبته ، مهما كان الثمن ، ومهما كانت المناسبة .

وقد تكفى الشهوة العارضة الشخص البدائى أو

المتوحش ، فهو يطارد بكل قواهالفرائس ليتغذى بلحمها والا هلك جوعا أو هزالا . وأى فريسة صالحة لهذا الفرض . أما عند ذروة التحضر، فالمرأة علىالخصوص ما أن يمس قلبها الحب ويوقظ حواسها حتى تصبح لها غاية واحدة هى الحظوة بالرجل الذى تحبه وتبلر حبها له ، بحيث لا تجد لذة حسية أو جسدية الا فى قرب هذا الرجل المعين ، وتضيق بلمسات غيره من الرجال . (وان لم تتوفر هذه السمة لدى الرجل فى اغلب الأحيان ، فلأنه لا يملك ما لدى المرأة من حياء واحتشام فطريين ، يضحى بهما عندما يمس امرأة) .

٦ ــ ميلاد الشك . فبعد برهة من الهيام وتبلر الحب ، يطلب العاشق ما يؤكد له ان عاطفته متبادلة ، ويريد امتلاك المحبوب تمام التملك ، وهنا يجد لدى محبوبته توقفا أو تردد أو صدا ، او فتورا ، قد يكون عن دلال ، او لخشية الرقباء ، أو تحسبا من عواقب الاندفاع مع العاطفة ، او رغبة فى التأكد قبل الاقدام. وهنا يتولد الشك لدى العاشق ، ويستبد به القلق والهم . والعادة فى فرنسا ان سلوك المرأة فى هذه المرحلة تشوبه السخرية ، وكأنها تقول لعاشقها : « انك تخال نفسك فى مركز القوة أكثر مما ينبغى لك ! » .. حتى يظن العاشق ان العصفور أفلت من الشرك ، وطار من يده الى الأبد ، مع ان هذا المسلك قد لا يكون مرده الى شىء سوى الخوف من انتهاك الحياء ، أو مجرد الرغبة الطبيعية فى الفندرة والدلال، وزيادة عواطف العاشق اتقادا . وعندئذ قد يقنط العاشق من تحقيق سعادته والظفر بلذات الوصال ، فيتهالك على مصادر اللذات السهلة ، من الشراب

والنساء ، على ما كان يعهد بعض ذلك قبل أن يحب ، فاذا به يجد تلك اللذات فاترة الطعم ، ليس فيها ماكان يعهده منها قبل أن يصيبه سهم كيوبيد .

٧ ــ التبلر الثانى . وفى هذه المرحلة يشعر العاشق ان هذا الحب قدره الذى لا مفر له منه ، وتلين المحبوبة وتقبل بعد توقف أو صد ، وقد تأكدت هى أيضا من عواطفها وعواطفه ، فيزداد هوسه وافتتانه بها ، حتى لايرى حسنا فى الدنيا الا فيها ، ولا يبقى فى نفسه الا التفكير فى الحظوة بها .

الفصل الثالث :

الفرق بين ميلاد الحب لدى المرأة ولدى الرجل

الخدمات والتودد هي التي تحمل المرأة على الارتباط ، ولما كانت أكثر من تسعة أعشار أحلام يقظتهن المعتادة متصلة بالحب ، فبديهي ان هذه الأحلام والخواطر تتجمع بعد الوصال حول موضوع واحد ، ويكون هدفها كله تبرير تلك الخطوة الحاسمة الخارقة للعادة والمناقضة لكل عادات الحياء والاحتشام . وليس لهذا الجهد كله وجود لدى الرجل . ثم ينصرف خيال المرأة بعد ذلك التبرير الى اجترار هذه اللحظة السعيدة اللذيذة على مهل .

ومن شأن الحب ان يثير الشك في أثبت الأمور واوكدها ، فاذا بالمرأة التي كانت قبل الوصال شديدة اليقين من سمو عاشقها فوق المستوى الشائع المبتذل ، وقد تحولت بعد أن تم الوصال ، ولم يعد لديها ماتأباه عليه ، الى الارتعاد خوفا من أن يكون كل مراد عاشقها من الوصول اليها أن يضيف امرأة أخرى الى قائمة عشيقاته .

وعندئذ يأتي دور التبلر الثاني ، وهو أقوى كثيرا من التبلر الأول ، لأنه مصحوب هذه المرة بالمخاوف . ولكن ينبغي التنبه هنا الى ان هذا التبلر الثاني

لا وجود له عند المرأة السهلة المنال ، التى تعودت التقلب بين أحضان الرجال ، لأنها بحكم تعودها هذا أبعد ما تكون عن هذه الأفكار العاطفية الجامحة .

ان المرأة الصعبة المنال تعتقد انها صارت بعد الوصال عبدة أو أمة بعد أن كانت ملكة . وهذه الحالة الفكرية والروحية تساعد عليها تلك النشوة العصبية التى تولدها اللذات العشقية النادرة الغامرة . ولذا ترى المرأة بعد الوصال مع عاشقها اذا ما خلت الى نولها الى لوحة تطريزها ، لا تجد فى هذا العمل الفث الماسخ ما يشغل شيئا عدا يديها ، ولذا تنطلق خواطرها متفكرة فى حبيبها ، فى حين يكون هذا العاشق مشغولا بعمله ، أو بالركض على جواده بين رجال كتيبته ، ولابد له من الانصراف الى ذلك بكل حواسه وأفكاره ، والا تعرض للافتضاح وجوزى على شروده وأخطائه .

ولذا اعتقد ان التبلر الثانى أشد وأقوى كثيرا لدى النساء منه لدى الرجال ، لأن مخاوف النساء بعد الوصال أكثر ، لارتباط الوصال بالمخاطر التى تحيق بكرامتها ومكانتها وشرفها ، ولأن التلهى عن هذه المخاوف والخواطر أصعب على المرأة . فأسلوب حياة المرأة قعيدة البيت لا يتيح لها الاتزان والتعقل فى احاسيسها ، ولكن الاتزان والتعقل ميسران لى جدا أنا الرجل الذى أقضى ست ساعات كل يوم فى مكتبى منهمكا فى أمور جامدة هامدة عقلانية . وحتى غير العاشقات من النساء يجنحن — بحكم فراغهن — الى الخيال ، وتجرفهن حماسة عواطفهن ، ولذا فمن السهل عليهن الا يرين عيوب من يحببن ، أو — ان رأينها — ان تختفى عن نواظرهن تلك العيوب سريعا . وهن

يفضلن العواطف والانفعالات على اعمال العقل ، والسبب في هذا واضح وبسيط للغاية ، لأنهن لايقمن بأى عمل جدى ، ولا ينهضن بأى مسئولية ، فلا حاجة بهن الى اعمال العقل ، ولذا لا يتعودونه ، ولا يجدن له نفعا لديهن ، ولا حاجة بهن اليه ..

بل الأنكى من هذا انهن يرين العقل شيئا ثقيلا ، بل ضارا . فلا يظهر العقل على المسرح الا لكى يوبخهن على ما أصبنه من ملذات ، أو لكى يحرم عليهن أن يستمتعن غدا بمثل ما نعمن به بالأمس .

* * *

والنساء يتفاوتن فى قدرتهن على التبلر ، فالفتاة بنت الثامنة عشرة لا تملك من القدرة على التبلر ما تملكه المرأة بنت الثامنة والعشرين ، لأن الصغيرة لا تستطيع أن تتخيل الا رغبات ولذات محدودة جدا ، بحكم قلة خبرتها بأمور الحياة ، ومن ثم يكون حبها أقل عاطفة واتقادا .

وقد بسطت هذا الرأى الليلة لامرأة ذكية أعرفها ، فكان رأيها على عكس هذا ، لأن الفتاة الحديثة السن لم يتجمد خيالها بتأثير الصدمات وخيبة الأمل فى الخبرات والتجارب السابقة ، ولأن حرارة الصبا الباكر لديها على أشدها ، ولذا يكون فى وسعها أن تنسج حول أى رجل يروقها هالة كبيرة ، وتتخيل له صورة بارعة الحسن آسرة الخلال . وكلما التقت بعاشقها أو محبوبها نعمت لا بمزاياه الواقعية ، بل بتلك الصورة الخلابة التى ابتكرها خيالها له ! حتى اذا تقدم بها العمر ، ونزعت الخبرة القناع الخادع عن وجوه جميع الرجال ، وسيطر عليها الأسى والاحباط ، وقلل

ذلك من قدرتها على التبلر ، لأن سوء الظن بالرجال قص أجنحة خيالها . فاذا صادفها بعد ذلك رجل ما ، حتى وان كان آية فى المحاسن وأعجوبة فى مزاياه ، لم تستطع أن تخلق له عندها تلك الصورة الأولى التى كان خيالها البكر قد توهمها لحبيبها الأول توهما لا أساس له . ولذا لن يكون حبها بعد ذلك بمثل حرارة حبها الأول وقوة اندفاعه . ولما كان المرء لا ينعم فى الحب الا بما يتوهمه ، لذا لن تكون الصورة التى تتكون عند بنت الثامنة والعشرين فى مثل روعة الصورة التى تكونت سابقا عندها وهى ابنة ثمانى عشرة سنة ، أو ست عشرة ، ولذا يبدو الحب الثانى أقل مستوى من الحب الأول ، الذى يظل فريدا فى حلاوته .

وعندئذ قلت لها :

ـ كلا ياسيدتى ! ان الحذر الذى لم يكن موجودا فى سن الثامنة عشرة أو السادسة عشرة هو الذى يضفى بلا شك لونا مختلفا على الحب الثانى . فالحب فى بواكير الشباب أشبه بالنهر الكبير الدافق الذى يجرف فى تياره كل شىء ، ويشعر المرء انه لا قبل له بمقاومته . اما النفس الرقيقة فتكون قد وعت ذاتها فى سن الثامنة والعشرين ، وأدركت انه لا سبيل لها الى سعادة فى هذه الدنيا الا عن طريق الحب . وهكذا ينشب فى فؤاد هذه المسكينة صراع محتدم رهيب بين الحب والحذر . ويتقدم التبلر فى طريق التكون ببطء شديد، اذ تصحبه فى كل لحظة تصورات مخاطر فظيعة، ولهذا السبب يكون التبلر عندئذ أقوى وأروع الف مرة من تبلر الحب لدى بنت السادسة عشرة ، ففى تلك السن الصغير ليس للخوف مكان ، بل كل شىء

يتسم بالمرح والهناء . أما حب بنت الثامنة عشرة فأقل بهجة ومرحا ، ولـكنه أعنف وأعتى . ولقـد صـدق ابيقور حينما قال : ان التمييز ضروري لامتلاك ناصية اللذة والاستمتاع بها .

والحقيقة ان هذا الحوار جعلني أزداد اعتقادا بأن الرجل لا يمكنه أن يعرف شيئا مما يخالج قلب المرأة الرقيقة العذبة الروح بعد الوصال لمن تحب . أما المرأة اللعوب ، فحالها مختلف جدا ، والرجـال يدركون ما يخامرها بسهولة ، لأن لديهم نظير ما لديها من الحواس والغرور باللذة الحسية المتاحة .

والفرق بين تولد الحب لدى الرجال ولدى النساء ناجم عن طبيعة الأمل الذي ليس واحدا في الجنسين . فالأمل لدى الرجل يدفعه للهجوم والاقتحام ، ولدى المرأة يدعوها للمدافعة . والأمل لدى الرجل يجعله في موقف الطالب ، ولدى المرأة يجعلها في موقف الرافض أو المانع أو المحجم . فالجرأة صفة الرجل ، والتهيب شيمة المرأة .

الرجل يسأل نفسه : أيمكن أن تحبني ؟ أيمكن أن أروقها ؟

أما المرأة فتقول لنفسها : أليس قوله انه يحبني ضربا من اللعب والهزل ؟ أهو جاد ؟ أيمكن التعويل على وعوده وعهوده ؟ أكفء هو للمسئولية عن دوام مشاعره وعمقها ؟

وهذا هو السبب في ان الـكثيرات من النساء ينظرن الى الشاب ابن الثالثة والعشرين نظرتهن الى طفل . أما اذا خاض عشر معارك ، أو اشترك في عشر معسكرات ،

وتقدمت به السن قليلا ، فانهن ينظرن اليه نظرتهن الى بطل شاب !

ان الأمل لدى الرجل يتوقف ببساطة على تصرفات محبوبته ، وليس أيسر من تأويل هذه التصرفات . أما لدى المرأة فالأمل يجب ان يقوم على اعتبارات أو تبصر خلقى أو معنوى من العسير جدا ايفاءه حقه . ومعظم الرجال يطالبون بدليل على الحب تقدمه المرأة بحيث يبدد جميع الشكوك والريب . أما النساء المصونات فلا يسعدهن كثيرا أن يقدم الرجال لهن هذا الدليل المادى. فتصاريف الحياة تقضى بأن يكون الفعل الكفيل بهناء الرجل وأمنه واطمئنانه وزهوه هو بعينه مصدر الخطر والقلق والمهانة لدى المرأة .

ولئن كان الرجال يتعرضون فى الحب للعذاب الخفى، فالنساء يتعرضن اذا افتضح حبهن للسخرية العلنية، ولذا فهن أكثر تهيبا ، لأن الرأى العام أهم لديهن بكثير ، والرأى العام يطالبهن بالتبصر الحذر وبالمحافظة على اعتبارهن قبل كل شىء . وليس لديهن ما لدى الرجال من وسائل لاخضاع الرأى العام بتعريض حياتهن لمخاطر الحروب .

وجدير بالذكر هنا أن نستعيد كلمة « بومرشيه» :

ــ تدعو الطبيعة المرأة أن تكون جميلة ان استطاعت، وحكيمة ان شاءت ، ولكن عليها أن تكون متبصرة ، حذرة ومحترمة حتما .

ففى فرنسا لا اعجاب بدون احترام وتبصر، وبالتالى لا حب . ومن ثم وجب على المرأة أن تكون أشد حذرا من الرجل بكثير. فميلاد الحب لديها مصحوب بحركات

فكرية ونفسية رقيقة ، وخجولة ، أبطأ بكثير وأقل جرأة وحسما مما يكون من ذلك كله لدى الرجل ، ولذا فهن أعظم استعدادا للوفاء والثبات على العهد ، وأقل استعدادا للتنازل بسهولة أمام مطالب الحب الطارىء ، كى يبدأ التبلر ويمضى قدما .

ان المرأة عندما يقع بصرها على حبيبها اما أن تفكر بسرعة أو تستسلم لسعادة الحب، وهى سعادة يقطعها عليها أقل هجوم من جانب حبيبها ، لأنها بذلك تضطر الى ترك أحلام اللذة الى امتشاق أسلحتها للدفاع الطبيعى عن عفتها .

أما دور المحب أو العاشق فأسهل من ذلك بكثير ، فهو ينظر فى عينى محبوبته ، وتكفيه ابتسامة واحدة منها كى يحلق فى سماء الحب ، ولذا فهو دائم السعى وراء هذه الابتسامة ، والعاشق يذل كرامته أن يطول حصاره لقلعة محبوبته وهى لا تستسلم ، فى حين تجد المرأة فى اطالة هذا الحصار مدعاة لزهوها .

فالمرأة يمكن أن تحب ، وتظل عاما بأكمله لا تقول لحبيبها الا عشر كلمات ، وتسجل فى فؤادها عدد المرات التى وقع فيها نظرها عليه ، وعدد المرات القليلة التى صحبته فيها الى المسرح ، أو دعيت فيها الى مآدب كان مدعوا لها أيضا ، وعدد المرات التى حياها فيها بايماءة أو انحناءة حين صادفها وهى تتنزه .

وقد يحدث ذات مساء ، فى حفلة ساهرة أن يقبل يدها ، فاذا بنا نلاحظ انها منذ تلك اللحظة لم تسمح لأحد بتقبيل يدها — ولو بدا ذلك غريبا وتعرضت بسببه للتساؤل أو الانتقاد — حتى لا يطمس أحد موضع شفتيه !

اما اذا حدث مثل هذا المسلك من رجل ، فانه يتهم في حبه بالتخنث .

* * *

وسأكتفى فى التدليل على التبلر بسرد الحكاية التالية :

سمعت فتاة من حولها يقولون ان قريبا لها يدعى ادوار سيعود عما قريب من الخدمة العسكرية ، وانه شاب على أعلى مستويات الامتياز والرقى ، وأكدوا لها انه يحبها على السماع ، بيد انه قد يفضل رؤيتها قبل ان يتقدم رسميا لطلب يدها من والديها . وحدث على اثر ذلك أن لمحت فى الكنيسة شابا غريبا عن البلدة ، وسمعت بعض الناس ينادونه باسم « ادوار » ، فلم تعد تفكر الا فى هذا الشاب، واحبته حبا عظيما بمجموع قلبها الغض . وبعد ثمانية أيام وصل « ادوار » الحقيقى ، فاذا به ليس الشاب الذى رأته فى الكنيسة، فاصفر وجهها ، وشعرت انها ستكون أشقى الفتيات ان أجبرها أهلها على الزواج منه .

وهذا ما يسميه بعض الناس جهالة الحب ، أو جنونه .

وقد يغمر شاب كريم السجايا فتاة مسكينة بالخدمات والعطف ، وواضح انه لايمكن أن يكون هناك من هو افضل منه من جميع الوجوه ، وان كل شىء مهيأ لولادة الحب ، ولكنه يلبس قبعة قديمة الطراز ، أو قد تراه وهو يركب الحصان بأسلوب غير رشيق ، فتوقن الفتاة انها لايمكن ان تستجيب لمبادراته أو بوادر هواه .

وقد يتودد رجل الى أكرم سيدات المجتمع ، وتسمع عنه انه مصاب بتشوهات جسدية خفية مضحكة ،

فيفدو فى نظرها ثقيلا لا يطاق ، مع انه لم يكن لديها أى تفكير فى الاستسلام له ، وهذه العيوب الجسمية الخفية لايمكن أن تضير ظرفه وحضور بديهته ، ولكن السبب وراء هذا النفور ان التبلر لم يعد ممكنا .

فلابد كى يتسنى للمرء أن ينصرف الى تأليه شخص ما ، أن يبدو له هذا الشخص كامل الصفات من جميع الوجوه الفعلية . ولن يبدو له هكذا الا بعد بضع أيام من التبلر الثانى ، حيث يكفى عندئذ أن تخطر ببال العاشق فكرة كمال من الكمالات كى يراها ماثلة فيمن يحب .

وهكذا يكون « الجمال » ضروريا لميلاد الحب ، وينبغى ألا تعد الدمامة أو القماءة حائلا دون هذا الميلاد ذلك ان العاشق ينتهى به الأمر الى أن يرى محبوبته جميلة كما هى ، من غير أن يحلم أو يفكر فى الجمال الحقيقى المتفق على سماته ومقاييسه .

انسمات الجمالالحقيقى ومقاييسه تكفى — حينتلوح له — أن تمنيه بوحدة واحدة مثلا من وحدات المتعة والهناء ، أما سمات حبيبته ومقاييسها الفعلية فتمنيه وتثير فيه ألف وحدة من هذه الوحدات .

أجل ان الجمال الى حد ما ضرورى قبل ميلاد الحب ، لأنه بمثابة اللافتة التى تشير الى وجود المتجر أو الخان ، وتغرى المرء بحب محبوبه على ضوء الثناء الذى يسمع الناس يضفونهعلىهذا الشخص ، فيتولد لديه الاعجاب ، وينمو الأمل .

أما فى حين الرغبة أو الميل والاستحسان ، وربما ايضا فى الدقائق الخمس الأولى من حب العاطفة أو

العشق بمعنى الكلمة ، نجد المراة تزداد تعلقا بالرجل بسبب نظرة للنساء الأخريات اليه ، أكثر مما تتعلق به بسبب نظرتها اليه شخصيا . ومن ثم ما يلقاه الأمراء والضباط من نجاح لدى النساء والفتيات .

وهاهوالسير والترسكوت يقول فى قصته «ايفانهو» :

« لم يكن فى وسع من لاحظوا فى هذا البطل الشاب جراة مستهبنة ، ممزوجة بالمبالغة فى التعالى وعدم المبالاة بمشاعر الآخرين ، لم يكن فى وسعهم أن ينكروا ما فى طلعته من ملاحة مرجعها الى وضاحة ملامحه ، واستوائها الطبيعى، وعنايته بها، مع صراحة واستقامة فى الحديث والسلوك . وكثيرا ما يخال الناظرون هذه السمات آية على صراحة الرجولة ، مع انها فى الحقيقة راجعة الى عدم الاكتراث المتولد عن المجانة والاستهانة، والاعتماد على علو النسب ، أو ضخامة الثروة ، أو غير ذلك من المزايا العرضية التى لا صلة لها بالمزايا الشخصية » .

ولقد كانت النساء الجميلات فى بلاط لويس الرابع عشر فى شيخوخته متدلهات فى حب هذا الملك الخليع .

ومن الخطورة بمكان أن نسهل الأمل ونفتح له الأبواب قبل التأكد من وجود الاعجاب ، والا تولد الفتور بدلا من الحماسة والاقبال ، واستحال الحب ، أو لم يمكن الشفاء منه الا بالاعتصام بالكرامة وعزة النفس .

ولا تظنن ان التعاطف ممكن بغير الاعجاب ، فلا أحد يتعاطف مع الأبله أو الخائب ، ولا مع من يبذل ابتسامته لكل رائح وغاد . ومن ثم تلزم للمرء فى المجتمع قشرة من الدهاء والحصافة ، تدل على المكانة وسمو

السجايا . والشخص الذى يبذل اعجابه بسهولة لايسر أحدا بهذا الاعجاب ، ولا يزهو أحد بحبه .

* * *

ومتى بدأ التبلر ، شرع العاشق فى الاستمتاع بكل ناحية جمال جديدة يكتشفها فيمن يعشق .

ولكن ما هو الجمال ؟ انه قابلية جديدة لمنحك اللذة .

ولذات كل فرد مختلفة جدا ، وكثيرا ما تكون متضادة . وهذا يفسر خير تفسير لماذا يبدو ما هو جميل فى نظر فرد ما قبيحا فى نظر فرد آخر .

فلكى نكتشف طبيعة الجمال يجدر بنا أن نبحث عن طبيعة لذات كل فرد على حدة ، ففلان مثلا تلزم له امرأة مستعدة لتحمل بضع حركات طائشة ، وتمنيه بابتسامتها العذبة بألوان من البهجة ، وتلوح لخياله بفنون من اللذات البدنية ، وتتيح له أن يعرض ظرفه ومجونه وهو ضامن انه سيكون موضع الترحاب والاعجاب . ذلك ان هذا الشخص يفهم الحب على انه الحب الجسدى ، فى حين يرى آخر ان الحب هو العاطفة المتأججة ، لا الجسد الشهوان . ومن ثم لايتفق هذان الشخصان على معنى واحد للجمال .

وهكذا تتفاوت معانى الجمال بتفاوت اللذات لدى الأفراد المختلفين . والتبلر الذى يتشكل داخل رأس كل رجل على حدة لابد أن يصطبغ بلون لذات هذا الرجل خاصة .

وتبلر معشوقة رجل ما ، أو جمالها ، ليس شيئا آخر سوى مجموعة كافة الاشباعات لكافة الرغبات التى استطاع تكوينها تباعا فى صددها .

الفصل الرابع :

النظـــرة الأولى

النفس الخيالية تتسم بالرقة والحذر أو الارتياب ، مهما كانت هذه النفس بسيطة ســـاذجة ، فالنفس الساذجة يمكن أن تكون حذرة مرتابة من غير أن تدرى، لأنها لقيت فى الحياة ألوانا كثيرة من خيبـة الآمال !

فكل ما هو معروف بصفة رسمية ومنظور ومتوقع من صيغة تقديم الرجل الى المرأة يستثير خيالها ويدعوها للريبة والحذر ، ومن ثم يبعد ويصعب امكان التبلر. بيد ان الحب ينتصر ويقهر هذه العقبة فى حالة الهوى الرومانسى من النظرة الأولى .

وليس هناك ما هو أبسط من هذا ، فالدهشة التى تدعو المرأة الى التفكير فى شىء خارق للعادة هى نصف حركة المخ الضرورية للتبلر .

وسأذكر هنا على سبيل المثال بداية غرام سيرافين (من كتاب جيل بلاس . الجزء الثانى) . وفى هذه الفقرة يروى دون فيرناندو قصـة هروبه عندما كان جنود محاكم التفتيش يطاردونه :

« بعد أن اجتزت عدة مسالك وأزقة فى حالة اظلام مطبق ، والمطر ينهمر كالسيول الدافقة ، وصلت الى قرب بيت وجدت بابه مفتوحا ، فدخلت ، وبهرنى ما

فيه من ابهة وفخامة فى البداية . ثم لمحت فى احد جوانبه بابا لم يكن تام الاغلاق ، فواربته ورأيت صفا من الحجرات ، كانت الأخيرة من بينها هى المضاءة دون سواها . فماذا كنت حريا أن أصنع ؟ رحت أسائل نفسى ، ولم أستطع مقاومة ما استولى على من الفضول ، فتقدمت ، واجتزت الحجرات ، حتى وصلت الى الحجرة التى فيها الضوء ، وهو عبارة عن شمعة مشتعلة فوق نضد من الرخام ، فى فانوس من الفضة المذهبة ... ووقع نظرى على فراش كانت ستائره مفتوحة الى نصفها بسبب حرارة الجو .. وهناك رأيت شيئا استأثر بانتباهى كله . وكان هذا الشىء امرأة شابة ، غارقة فى النوم تماما برغم أصوات الرعد القاصف ... فاقتربت منها ... وأحسست انى اخذت بجمالها ... وفيما أنا منصرف الى الانتشاء بلذة تأملها ، اذا بها تفيق .

« ولك أن تتخيل ما شئت مدى دهشتها اذ رأت فى مخدعها ، فى جوف الليل ، رجلا ليس لها به سابق معرفة . فارتجفت حين رأتنى ، وأطلقت صرخة ... واجتهدت فى طمأنتها ، وجثوت باحدى ركبتى على الأرض ، وقلت لها :

ـ سيدتى ، لا تخشى شيئا !

« فنادت خادمتها ، فأقبلت فتاة منهن صغيرة ، وعندئذ واتتها الجرأة وسألتنى بأنفة من عساى اكون .. الخ .. الخ .. »

وهذه بطبيعة الحال نظرة أولى ليس من السهل نسيانها . وما أبعد الشبه بينها وبين ذلك المتبع فى

عاداتنا الخرقاء من مراسم التقديم الرسمى ، شبه العاطفى ، للشاب المرشح للزواج الى الفتاة ! ان هذا العهر الشرعى ليصدم الحياء والاحتشام !

واروى هنا ما جاء على قلم « شامفور » :

« لقد شهدت بعد ظهر اليوم ، ١٧ من فبراير عام ١٧٩٠ ، حفلة عائلية كما يسمونها ، وهى حفلة تضم مجموعة من الرجال المشهود لهم بالشرف والأمانة ، راحوا يصفقون متمنين الهناء للآنسة دى مارى ، وهى شابة حسناء ، خفيفة الروح ، عفيفة ، فاضلة بزمعون تزويجها من السيد ر . وهو شيخ عليل منفر عديم الأمانة أبله ، ولكنه غنى ، وهى اليوم تراه لثالث مرة لتوقع على العقد .

« ولئن كانت هناك سمة تدفع جيلا بالعار ، فهى مثل هذه الطقوس ، لسخافة مظاهر البهجة والحبور فيها ، مع أن هذا المجتمع نفسه يصب بكل القسوة المتزمتة احتقاره على أقل بادرة للخروج على سنة الحذر والحرص من جانب أى شابة عاشقة » .

والذى يعيب هذه المراسم والحفلات ، أنها بطبيعتها أمور يسودها التكلف ، كل ما يجرى فيها متوقع ومنتظر ومرتب سلفا ، ويجب أن يتصرف المرء فيها بطريقة ملائمة ، وهذا فى حد ذاته كاف كى يشل أو يجمد الخيال ، بحيث لايوقظه الا ما هو على العكس تماما من أهداف هذه المراسم والطقوس . ومن هنا ندرك السر السحرى لأى بادرة فكاهة أو مزاح. فالفتاة المسكينة الحديثة السن ، المكبلة بالحياء والاحتشام الى حد الارهاق ، لا تستطيع أثناء مراسم التقديم الرسمية لخطيبها أن تفكر فى أى شىء سوى ذلك الدور

الذى تؤديه ، والأنظار كلها مسلطة عليها . وهذا من شأنه قطعا أن يخنق كل خيال ممكن .

وانه لما يناقض الحياء قطعا أن يضم الفتاة فراش واحد مع رجل لم تره الا مرتين ، بعد أن يتلو القسيس ثلاث كلمات باللغة اللاتينية ، واذا بها مطالبه بالاستسلام لهذا الغريب ، والتنازل عن كل أمل فى شاب آخر ظلت تعبده سنتين مثلا . وأحسبنى أتكلم لغة غير مفهومة فى مجتمعنا المكبل بالمراسم والطقوس . فالبابوية هى المصدر الخصب جدا للرذائل والشرور، وألوان التعاسة التى تعقب حفلات زواجنا حاليا (القرن التاسع عشر) . لأن هذه الطقوس والمراسم تجعل حرية الفتيات قبل الزواج مستحيلة ، كما تجعل الطلاق بعده مستحيلا ، عندما يدركن ويتحققن من أنهن كن ضحية التغرير ، وانهن سلبن بغير حق حرية الاختيار، عندما تولى عنهن ذووهن هذا الاختيار ، فلم يحسنوه . أما فى ألمانيا ، فالحال غير الحال تماما. فها هى أميرة ألمانية ، هى الدوقة دى ساجان، وقد تزوجت بكل يسر واعتبار للمرة الرابعة ، ودعت الى حفل زواجها أزواجها الثلاثة السابقين ، الذين تربطهم بها أحسن أواصر الصداقة !

ولست انكر أن هذا تطرف فى اباحة الطلاق وتسهيله، ولكن أى بأس فى طلاق واحد يعاقب به الزوج الطاغية ، ويكون عبرة لغيره وهم بالألوف . وأعجب ما فى الأمر ان روما هى أكثر بلاد أوربا فى نسبة الطلاق !

ان الحب للوهلة الأولى يصطفى سحنة تستثير فى المرأة شيئا من الاحترام ، مع الانجذاب والارتياح .. ولا بأس أيضا بشىء من العطف ...

والنفوس البالغة الرقة شديدة الحساسية للفضول وحب الاستطلاع والملاحقة ، ونلاحظ هذا على الخصوص لدى من انطفأت لديهم الجذوة المقدسة ، وهى مصدر العواطف الملتهبة . وهـــذه علامة من أخطر العلامات والاعراض ، لأن هؤلاء الباردو القلوب ، الملتهبو الحواس يطاردون السذج ويوقعونهم فى حبائلهم بكثرة الملاحقة .

ويلاحظ أيضا سهولة الوله الذى يتولد من النظرة الأولى لدى المراهقين والمراهقـــات ، عنـــدما يغادرون مقاعد الدراســـــــة ويدخلون المجتمع لأول مرة ، لأن حساسيتهم تكون على أشدها عندئذ ، وقابليتهم لتوقد العواطف المفاجىء لا حد لها ، واذا بهم فى خضم من الحبائل التى ينصبها من بردت حساسيتهم ، واتسعت خبرتهم . فغير غريب أن نرى هؤلاء السذج يترامون بطيش على الأشياء ، بدلا من انتظارها حتى تقبل نحوهم .

فقبل أن يصل اليهم الاحساس ـ الذى هو نتيجة لطبائع الأشياء ـ نجدهم يضفون على هذه الأشياء التى تقع عليها أنظارهم لأول وهلة تلك الفتنة الخيالية التى يجدون مددها ومعينها الخصب فى ذوات أنفسهم . حتى اذا ما اقتربوا من هذه الأشياء لم يتسن لهم أن يروها كما هى فى الواقع ، بل على نحو ما زوقوها وزينوها ، ويخالون ان استمتاعهم عندئذ صار من الأشياء ، مع انه صادر من أوهامهم الخاصة . ولـكن الاحتكاك لايلبث ان يطلعهم على الحقيقة العارية من كل قناع ، فيحدث لهم احباط أو خيبة أمل ، واذا بالمحبوب لا يستجيب للمشاعر البريئة ولا يحسها ، فيتبدد الوهم ، ويتحطم التوله فى معظم الأحوال ، ويحل محله الغل والحقـــد الظالم ، نتيجة المبالغة الخيالية فى محاسن المحبوب الأول .

الفصل الخامس :

الحب الصاعق

يعبرون عن الحب الذى يصيب المرء دفعة واحدة ويستولى عليه فلا يملك من زمام نفسه بعد ذلك شيئا — يعبرون عنه بضربة الصاعقة ، أو الاصابة بصاعقة . وفى رأيى ان هذا التعبير سخيف ، وان كنت أعترف تماما بأن ما يشير اليه هذا التعبير أمر له وجود حقيقى، وان لم يكن شائع الحدوث .

وقد رأيت بعينى «ولهلمين» النبيلة الجميلة اللطيفة ، التى أيأست منها جميع الرجال المشهورين بالوسامة والوجاهة فى برلين ، لفرط ما كانت تزدرى عاطفة الحب ولا تعترف بها ، بل وتسخر كل السخرية من « هذه الحماقات والسخافات » وهى التى تتلألأ بمحاسن الشباب ، والذكاء ، والجمال ، وشتى ما يفتتن به الناس وما تزهو به النساء ، مع ثراء بغير حدود أتاح لها أن تنمى هذه المزايا حتى لكأن الطبيعة والحضارة والمدنية قد تآمرت جميعا لكى تجعل منها انموذجا نادرا للهناء الكامل الذى تتمتع به امرأة هى لذلك كله أهل .

وكانت سنها ثلاث وعشرون سنة ، ولها مدة طويلة فى البلاط ، استحقت خلالها كل تقدير واعجاب وثناء من أعلى المستويات . وهى مع هذا كله ذات فضيلة وعفة

ليس عليهما مأخذ ، مع تواضع واحتشام ، حتى لقد ينس أوسم الرجال من الحظوة بقلبها ، فاكتفوا بصداقتها .

وذات ليلة ذهبت الى حفل ساهر راقص فى قصر الأمير فردينان ، وهناك رقصت عشر دقائق لا أكثر مع ضابط شاب برتبة نقيب . وقد كتبت بعد ذلك عن هذا الحادث الى صديقة لها تقول :

« منذ تلك اللحظة صار هذا الشاب السيد المهيمن على قلبى وعلى . وقد تم هذا الى درجة ملأتنى بالفزع ، ان كانت سعادتى برؤية هرمان قد تركت لى متسعا من الوقت للتفكير فى سائر الوجود . فقد كان تفكيرى كله منصبا على تسقط ما قد يدلنى على انه أولانى شيئا من الاهتمام !

« وعزائى الوحيد فى يومنا هذا عن أخطائى ونقائصى هو اعتقادى ان قوة عليا قد سحرتنى وسلبتنى عقلى . ولن أستطيع عن طريق الكلام أن أرسم صورة تقارب الحقيقة . والواقع لما يحدث لى من انقلاب فى كيانى كله لمجرد وقوع بصرى عليه ، ويحمر وجهى لمجرد تفكيرى فى سرعة وعنف انجذابى نحوه . فلو ان عبارته الأولى لى عندما كلمنى كانت سؤاله اياى : أتعبديننى ؟ لما كنت مستطيعة الا ان اجيبه بقولى : اجل . أعبدك !

« نعم ! لم أكن أدرى من قبل ان عواقب وآثار عاطفة أو شعور ما يمكن أن تكون مفاجئة وغير متوقعة الى هذا الحد .. حتى لقد ظننت فى لحظة من اللحظات انى مسمومة !

« ومن سوء حظى انك وجميع الناس أيتها الصديقة العزيزة تعرفون اننى أحببت هرمان . والواقع انه بعد

ربع ساعة لا أكثر كان قد صار عزيزا على جدا ، بحيث انه لم يكن من الممكن أن يغدو أعز عندى مما هو عندئذ لأن اعزازى له كان لايدع زيادة لمستزيد . ولم أكن غافلة عن نقائصه ، بل كنت أدركها جميعا ، ولكنى غفرتها له ، شريطة أن يحبنى !

« وبعد أن رأقصت هرمان بقليل ، انصرف الملك من الحفل ، وكان هرمان من فصيلة الياوران التى صحبت جلالته ، فاضطر للانصراف . وباختفائه عن ناظرى ، اختفت كل الطبيعة بالنسبة لى . ويعجزنى أيتها الصديقة أن أصور لك فرط السأم الذى استولى على منذ تواريه . ولست أعرف احساسا يضارع ضيقى بالحفل والناس عندئذ ، اللهم الا رغبتى الشديدة فى أن أختلى بنفسى .

« وأخيرا استطعت الانصراف . وما أن أغلقت باب جناحى الخاص بالمفتاح ، حتى ساورتنى الرغبة فى مقاومة عاطفتى . واعتقدت برهة انى نجحت فى هذا . وآه ياعزيزتى ! لكم دفعت غاليا ثمن تلك الليلة ، والأيام التى تلتها ، كى أستطيب اعتقادى بقوة عفتى وصمودى ! » .

* * *

والسطور السابقة صورة حادثة واقعية كانت «خبر الساعة » فى حينها ، فبعد شهر أو شهرين تحولت «ولهلمين» المسكينة انموذجا للتعاسة البادية . وقد كان هذا الغرام الصاعق مصدر سلسلة طويلة من الأرزاء التى انتهت بوفاتها فى سن صغيرة جدا ، وبصورة مأسوية للغاية ، لأنها ماتت بفعل السم . ولا أحد يدرى أهى التى تناولته باختيارها ، أم كان معشوقها هو الذى دسه لها . فكل ما استطعنا أن نراه فى هذا النقيب

الشاب انه كان يجيد الرقص ، نير المرح ، بالغ الثقة بنفسه ، وفى سحنته طيبة واضحة ، وعرفنا انه كان كثير الاختلاط ببنات الهوى ، ثم انه لايكاد يعد من أبناء الطبقة النبيلة ، فضلا عن انه شديد الفقر ، ولا يتردد على البلاط ، بل هو موظف فى الحرس الملكى. ولذا نقول ان الحذر وسوء الظن واجبان ، مع شيء من الصلابة والشجاعة فى مواجهة أرزاء الحياة ومقاديرها. فالروح قد تسأم ــ وهى لا تدرى أو فى غفلة منها ــ المضى فى الحياة بدون حب . وقد يدفع المرأة الحذرة الحصيفة ما تراه من حال النساء الأخريات واستمتاعهن بالحب ، فتنساق عن سأم للاقتداء بهن ، وقد أضجرها التمسك بالكبرياء ، ويأخذ خيالها فى رسم نموذج للرجل المثالى الذى تتمناه ، حتى اذا ساقت اليها المقادير من يشبه هذا المثال المرتقب ، عرفه القلب على الفور بما يثيره فيه من خفقان ، فاذا بالسيدة الرصينة المتكبرة العزيزة المنال وقد أسلمت قيادها بلا معركة لسيد مصيرها الذى حلمت به منذ أمد طويل .

والنساء اللواتى من هذا الطراز ، واللواتى ينكبن بمثل هذا الحب الصاعق ، لا يمكن أن يسمح لهن كبرياؤهن بحب غير الحب العاطفى المندفع ، وما كانت حياتهن لتفسد هذا الفساد الوبيل لو انهن تنازلن عن كبريائهن وكن غزلات لعوبات بعض الشيء .

ولما كانت « الصاعقة » صادرة ــ كما قلنا ــ عن ملل خفى مما وسبته فى النفس دروس الدين ، وما تسميه الفضيلة والعفة ، وعن السأم الذى يسببه الاتزان والكبرياء والسلوك الكامل ، لذا أظن انه كثيرا ما تقع « المصعوقات » فى غرام من ليسوا جديرين بحبهن

المخلص الجارف ...

ومن حسن الحظ ان هـــذه « الصواعق » نادرة الانقضاض . وسبب هده الندرة ان المراه التى لديها أية خبره سابقة بالعواطف الغرامية لا يمكن ان تصاب بهده الصاعقه . واكثر الجميع حصانة من لهم خبرات عاثرة الحظ ، لأن الخيبة والاحبـــاط يورثان الحذر والتحرز وسوء الظن بالجنس الآخر ، ويجعلان المرأة غير مستعده ولا قادرة على هذا الانقلاب التام فى كينونتها .

والملاحظ انه ما من شيء يسهل اصابة هذه الصواعق للغريرات أو المتكبرات العفيفات . مثـل ألوان المديح والثناء التى تكال سلفا لشاب أو رجل ، قبل أن تقع عليه عين السيدة أو الفتاة ، على ألسنة النساء الأخريات، فينسجن بذلك له هالة باهرة تزيغ البصر ، وتمهـــد لانقضاض الصاعقة . أليست الأذن تعشق قبل العين أحيانا ؟ ..

* * *

وهناك « صواعق » كاذبة . فمن النساء من يكاد يقتلهن الملل ، ولكنهن فى الوقت نفسه غير شديدات الحساسية ، ولا رقيقات القلب الى هذا الحد . ولذا يخيل الى الواحدة منهن أحيانا انها غارقة فى الحب الى أذنيها ، حبا أبديا صعقها فى طرفة عين ... ولـكن هذا الوهم الآسر لا يدوم الا ليلة واحدة ، حتى اذا طلع الصباح ، لم يبق من هذا الحلم اللذيذ الا ما يتبقى من سائر الأحلام .. بل انها ــ ان كانت قد تورطت بلسانها أو فضحتها حركاتها أو عيناها ــ لا تدرى أين تخفى وجهها ، ولا كيف تتحاشى ذلك « الشيء التعس » الذى كانت بالأمس تحسبـه معبودها الى آخر العمر !

وللحب الجسدى صواعقه أيضا . وقد رأينا بالأمس القريب أجمل نساء برلين واسهلهن منالا على الاطلاق ، وقد احمر وجهها فجأة وهى فى عربتها التى كنا فيها معها ، لان الملازم فندروف الوسيم مر من امام نافذتها، وغرقت فى بحر من أحلام اليقظة ، وظهر القلق على محياها الجميل . وفى المساء اعترفت لى وأنا معها فى المسرح انها أحست لرؤياه بنشوة جارفة ، ورغبة لا تقاوم ، ولم تعد تفكر الا فى فندورف ، الذى لم تكن قد تحدثت اليه قط من قبل ، ولا تدرى كيف تصل حبالها بحباله. بل انها قالت لى انها فكرت فى أن ترسل فتستدعيه الى مخدعها . وكانت على محياها البارع الجميل وهى تحدثنى جميع امارات العاطفة الحقيقية الجارفة .

واستمر هذا حالها فى اليوم التالى ، الى أن وجدت حيلة وتعرفت به . وبعد ثلاثة أيام كانت قد سئمته . وبعد شهر صارت تتعجب ماذا راقها فيه ؟ وصار مرآه بغيضا اليها ...

ولكن كان من الممكن بطبيعة الحال ألا ينتهى الأمر هذه النهاية ، لو ان ذلك الملازم الوسيم لم يتكشف عن التفاهة التى تكشف، عنها لهذه العاشقة له عن بعد.

الفصل السادس :

رحلة فى إقليم مجهول

سأدخل الآن بشجاعة الى مجال جديد ، هو فحص الوقائع التى أرانى مقتنعا بأنها لم تقع قط تحت ملاحظة من يعيشون فى باريس . أجل ان باريس مدينة ليس لها نظير فى رقيها ، بيد ان المرء لايرى فيهـا أشجار البرتقال التى تملأ رحاب الأرض ، كتلك التى يراها المرء فى سورينو المطلة على خليج نابولى بايطاليا الدافئة، فى موقع أجمل من موقع نابولى نفسها . وفى سورينو شاهد « ليزو فيسكونتى » الوقائع التالية :

عندما يكون المرء على موعد لرؤية المرأة التى يحبها عند حلول المساء ، يغدو انتظاره لهذا الهناء الغامر أمرا لا يطاق ، فى كل لحظة من لحظاته .

كالمحموم هو ، لا يكاد يتشاغل بشىء حتى يتركه ، ويتكرر هذا عشرين مرة ، بغير كبير جدوى . وتراه ينظر الى ساعته فى كل آونة ، حتى انه يغبط نفسه ان اكتشف انه قضى عشر دقائق متوالية من غير أن ينظر اليها !

وأخيرا تدق الساعة المأمولة ، ويجد نفسه واقفـا عند بابها ، متأهبا للطرق . ولـكن نفسه تسول له انه اروح لها الا يجدها فى البيت ، لتجمع كرب الانتظار فى

موجة عاتبة واحدة قبيل اللحظة الحاسمة .

ومثل هذا الشعور المتناقض هو الذى يجعل السذج من النـــاس ، والخليين من الحب ، يقولون ان الحب يقترن بالخرف والتناقض المنطقى .

وجلية الأمر ان الخيال فى هذه اللحظة يواجه عملية انسحاب عنيفة من مجال الأحلام والأمانى اللذيذة التى تسعد العاشق فى كل خطوة من خطواتها ، كمن يواجه الواقع القاسى الصلد .

وتدرك النفس القلقة الواجفـــة تمام الادراك ان « المعركة » التى توشك أن تنشب متى وقع بصرك عليها من شأنها أن تجعل أقل أهمال ، وأقل شرود ذهن أو تخاذل جريمة عقوبتها الهزيمة النكراء التى تسمم لأمد طويل ما يعقب ذلك من أحلام اليقظة التى يعيش عليها الخيال العاشـق ، وتصيب عزة النفس أو الـكبرياء بطعنة نجلاء . وتظل تقول بعدها لنفسك : « لقد ارتج على . لقد خانتنى شجاعتى ! » .

ولـكن ينبغى أن تعلم ان المرء لا تواتيه الشجاعة مع من يحبها ، الا اذا قل حبه لها عن تلك الذروة التى تطيش كل صواب ، وتشل كل بديهة .

وهكذا لا يبقى الا القليل من التركيز وحضور البديهة مما يمكن انتزاعه من مجال أحلام اليقظة التى تصـاحب مرحلة تبلر الحب لـكى يخاطب العاشـق المراة التى يحبها فى لقائهما الأول ، فتند عنه ــ ولاسيما فىالعبارات الأولى التى يفتتح بها الحديث ــ أقوال لها معنى ، أو ليس معناها ذا بال ، أو مناقض لحقيقة احساساته. أو ــ على العكس ــ فيه مبالغة مسرفة فى الاعراب عن

عواطفه ، بحيث يحس فى نفس اللحظة انه يقول كلاما سخيفا ليس من شأنه أن يكبر فى عين من يحبها . وفى الوقت نفسه لايمكنه أن يلوذ بالصمت ، لأن الصمت فى هذه الأحوال أثقل وأشد احراجا ، فهو على الجملة شخص صارت نفسه شعاعا ، فلم يعد يملك لها زماما. وبذلك يجد العاشق نفسه يخوض فى ألف موضوع ، وموضوع ليست بينها رابطة معقولة ، ويبدى فيها آراء ليست فى الحقيقة آراءه ، وليست ما يريد أن يقول ، الا انه يقولها ملئا لفراغ أقسى وأهول من كل سخف فى القول.

ولذا فكرت بعد لقائى الأول معها أن أمتنع عن تكرار الزيارة ، حتى تكون خواطرى وأحلام يقظتى صلة أوثق تربطنى بها وتقربها منى .. لأن هذا اللقاء الأول باعد ما بينى وبينها . بل انى حين خلوت الى نفسى وراجعت ما كان منى فى مواجهتها ، خطر لى انى لا أحبها حقا .

وأنا أفهم ما هو معنى الجبن ، وماذا يدفع صاحبه اليه من ألوان الطيش . فالاغرار عديمو التجربة يهولهم جبنهم ، ويحاولون انتزاع أنفسهم من أهوال فزعهم ، فاذا بهم يلقون بأنفسهم الى النار القاء . والحق ان عدد الحماقات التى تفوهت بها منذ عامين كلما قابلت حبيبتى تجنبا للصمت عدد كاف كى يستولى على اليأس كلما فكرت فيه .

وهذا ما ينبغى أن نميز فى نظر النساء الفرق بين حب العاطفة أو التدله والهيام ، وبين حب التغزل أو الرغبة والاستحسان ، لأنه بعينه الفرق بين النفس الرقيقة حقا والنفس العادية .

ففى هذه اللحظات أو الأوقات الحاسمة تفوز النفس العادية وتخسر النفس الرقيقة الحساسة ، بسبب رقتها

وحساسيتها . ذلك ان النفس العادية تكتسب عندئذ الحرارة أو الهمة التى تفتقر اليها عادة . أما النفس المسكينة المفرطة الرقة والحساسية فتطيش لفرط رغبتها فى اخفاء براكينها وكبح جماحها ، فتشغل بذلك عن الحبيبة نفسها ، وتكون أبعد ما يمكن عن الاتزان أو هدوء الطبع الضرورى لحسن السمت ، وحضورالبديهة، والتألق ، أو على الأقل الظهور بأفضل صورة لائقة للموقف . وهكذا تخسر كل شيء ، فى حين تتقدم النفس العادية خطوة ، أو خطوات .

فحينما يتعلقالأمر بمصالح الحب العاطفى الحاسمة، لا تستطيع النفس الرقيقة ذات الكبرياء أن تكون فصيحة طلقة ثابتة الجنان بين يدى من تحب . وخوف الفشل يزيد من اضطرابها ووجلها فتزداد ارتباكا على ارتباك ، وطيشا فوق طيشها ، ومن ثم تزيد غوصا فى أعماق الخجل والفشل والخزى .

أما النفس العادية أو السوقية فعلى العكس من ذلك تماما ، تحسن حسابات فرص النجاح بدقة بالغة ، ولا يكبلها الفزع من الفشل أو الهزيمة ، لأن الهدف ليس فريدا فى قيمته لديها ، حتى انه أغلى من الحياة نفسها كما هو الحال مع النفس الرقيقة المتيمة . ولذا تتصرف بأعصاب هادئة ، وتهزأ بالعواطف الجارفة . وهكذا تزهو النفس السوقية بأنها سوقية ، وبعناصر سوقيتها. فى حين تعجز النفس الرقيقة النبيلة الحساسة عن قول أبسط العبارات واحراز نجاح تراه النفس السوقية مضمونا يسيرا بلا عناء .

فهوان الحبيبة على السوقى أو العادى من الرجال هوسرنجاحه السهل. انها فريسته ، والعوبته ، ورياضة

صيده ! ولهوانها لا يؤلمه فشله فى الحصول عليها بالذات الما عميقا ، وسرعان ما ينصرف الى سواها ، فالأمر كله تسلية وتلهية . أما الفشل لدى العاشق الحقيقى ، او مجرد التفكير فيه فشيء مروع . وهذا ما يجعله ينهزم ويخسر موقفه أو معركته قبل أن يخوضها .

ان الرجل العادى ، او السوقى النفس ، طالب صيد مستعد سلفا أن ينتزع ما يريده عنوة ، اما الرجل الحساس الرقيق فلا يفكر فى استخدام العنف أوالسطو ، بل كل ما يتمناه أن يتلقى من حبيبته ما تجود به علبه طواعية ، وهى أقرب الى التصدق على من تحب !

واذا كانت الحبيبة رقيقة النفس حقا ، فستدرك ان هذا العاشق مرتبك ، وليس على سجيته لأنه يحبها حبا ملك عليه آفاق نفسه ، وهذا وحده ينبغى أن يغنيه عن كل تصريح باللسان ، لأن لسان الحال أبلغ فى هذا من لسان المقال ... وعندئذ يندم العاشق على انه حاول عبثا أن يقسر نفسه قسرا على التحدث اليها عن الحب .

والواقع ان تفكير العاشق فى انه ينبغى أن يعبر بالكلمات عن مشاعره تفصيلا ، فى كل لحظة من لحظات حياته ، انما هو أثر من آثار الاكثار من مطالعة القصص والروايات ، ولو رجع المرء الى نفسه وحدها ، لما وجد به حاجة الى شيء من هذا . وبدلا من الحديث عن مشاعره التى خامرته منذ ربع ساعة ، وبدلا من محاولة رسم لوحة عامة مشوقة لليلته الماضية المؤرقة ، يكفيه أن يتحدث ببساطة عما يشعر به فى لحظته الراهنة .

ولكن لا ! ان العاشق بدلا من ذلك يجهد نفسه ، ويكلفها ما لا تطيق كى يظفر بنجاح أقل ! ولما كانت الذاكرة أقل حيوية من اللحظة الحاضرة عموما ، فهي

فى هذا الموقف بالذات ترتبك تماما ، ولا تمده الا بما هو باهت ، فاذا بالعاشق يتخبط ويقول ما لايناسب الموقف أو المقام .

واذا انفسح الوقت أمام العاشق المتيم كى تهدأ نفسه ، وساعدته الحبيبة بابتسامتها وحسن تفهمها على شيء من ذلك ، وجد نفسه بعد ساعة أقدر على التحدث والتصرف المناسبين ، ولكنه فى الوقت نفسه يرى ان « الأصول » تقضى عليه بالانصراف ، بعد أن طالت الجلسة بما فيه الكفاية ، أو فوجىء بزائر جديد أو زائرة ، فلا يبقى للقول أو للبقاء مكان .

وهذا كله قد يبدو نوعا من التطرف أو المبالغة المسرفة . ولكنى رأيت بعينى ما هو أكثر من هذا . ذلك ان أحد أصحابى كان عاشقا لامرأة الى حد العبادة، وشعرت هذه المرأة انه أساء اليها اساءة لم أتوصل الى معرفة كنهها ، فقررت حرمانه من رؤيتها أكثر من مرتين فى كل شهر . وكانت هذه الزيارات القليلة جداً ، بل النادرة ، سبب اصابته بنوبات من الكرب تقارب الجنون ، حتى ان صديقى هذا – واسمه سلفياتى – وجد عناء شديدا فى اخفاء مظاهرها، حتى لايفتضح أمره .

ومنذ بداية كل زيارة ، كان تفكيره فى انها ستنتهى ، يستولى على مشاعره ويشل صوابه ويقضى على كل لذة له باللقاء الذى طال تشوقه اليه . وكثيرا ما دفعه هذا الى أن يتكلم أكثر مما ينبغى أن يصغى لكلامها ، وكثيرا ما كان يقول نقيض ما يفكر فيه . ويشرع فى موضوعات ثم يضطر للكف عن الاسترسال فيها الى ختامها ، لأنه تبين سخافتها ونبوها عن المقام بعد قليل، حين ألقى باله ذات لحظة لما يتفوه به .. ويحاول تنظيم

أفكاره فتروغ منه ، ويبدو فى مظهر الفاتر غير المعتنى أو المحتفي باللقاء . وهكذا يتوارى الحب وراء ستار الدخان الذى يتصاعد من براكينه !

أما وهو بعيد عنها فخياله تهدهده أبدع وأشهى ألوان الحوار ، ويجد فيها ألوانا من النشوة والسعادة ليست لها حدود . وبذلك كان يجد على مدى أسبوعين فى نفسه الجراة كل الجرأة على التحدث اليها بكل طلاقة وظرف ورشاقة . ولكن عشية اللقاء المشتهى تبدأ الحمى تساوره، وتتضاعف وطأتها كلما اقتربت الساعة الموعودة.

وفى لحظة الدخول الى صالونها جمع أمره على التزام الصمت، حتى لايتكرر منه ما سلف فى الزيارات السابقة من تخليط فى الكلام ، واضطراب فى التفكير لايكاد يصدقه عقل. وقرر أن يكتفى بانعام النظر اليها عسى أن يتمكن بذلك من تذكر سيماها وهيئتها وحسن محياها ورشاقة خطوتها . ولكنه ما أن صار فى حضرتها حتى استولى عليه شيء أشبه بما يستولى على المخمور من نشوة الشراب ! وغامت عيناه ، وزاغ بصره ، واختلطت عليه المرئيات ، كأنما يحدق فى قرص الشمس فى وضح النهار، فلا يستطيع أن يثبت فيها بصره . واذا به مدفوع — كالمخبول — الى الاتيان بأعمال غريبة ، فكأن له روحين : احداهما يأتى الأفعال ، والأخرى تستنكر هذه الأفعال!

وكانت الروح التى تستنكر ما يصنع ترده الى رشده برهة ، وتنعش ذهنه ، حتى ليكاد يهم بالانصراف فرارا من هذا التخبط ، متناسيا ان خروجه معناه حرمانه من رؤياها خمسة عشر يوما اخرى ! وهكذا تبددت تلك الدقائق القليلة التى أتيحت له بعد طول الصبر والتلهف .

وأخيرا لم يجد مندوحة من الانصراف ، وهو يقول لها بفتور : وداعا . وفكرة واحدة تلح عليه : انه من الأفضل له ألف مرة أن يكف عن رؤياها وزيارتها نهائيا ، فهذا خير من هذه المواقف الهزيلة التى يسيىء فيها الى نفسه فى عينيها .

وهذا شىء من قبيل ما حدث للدوق دى بوليكاسترو الذى كان يقطع كل ستة شهور مائة ميل لـكى يرى لمدة ربع ساعة معشوقته المعبودة التى يضيق الخناق عليها زوج غيور .. فكان ينظر اليها عن بعد ، وهى فى نافذتها . وانه لتصرف يدل على تخاذل الارادة أمام سطوة الحب . فلم يكن لـكل هذا العناء من ثمرة الا ابقاء جذوة الحب اليائس متقدة لا تخمد ، أو بعبارة أخرى تجديد « تبلر » هذا الحب .

وجملة القول ان الحياة بالنسبة لصديقى سلفياتى المسكين انقسمت الى فترات متقطعـة ، يفصـل فيما بينها تلك الزيارة القصيرة كل خمسة عشر يوما لمدام.. بحيث يسعده الحظ فترضى عنه وتبتسم له مرة ، فيؤرخ سعادته بهذا اليوم ، ويسجله فى ذاكرته ، فيقول مثلا : انه عرف السعادة فى ٢١ مايو ، أما فى ٢ يونيه (وهى الزيارة التالية) فظل طول الليل يطوف الطرقات ، ولايريد العودة الى بيته، حتىلايطلقالرصاصعلى رأسه!

وفى تلك الليلة بالذات عرفت ان الروائيين أسـاءوا تصوير لحظة الانتحار ، لأن سلفياتى صور لى رغبته فى الانتحار بأنه «يشعر بظمأ قاتل لا ترويه هذه الكأس!» كأس المنون ! ولم أحاول اثناءه عن عزمه ، بل ودعته فى صمت ، ولم يفرج كربته الا انفجاره بالنحيب !

الفصل السابع :

الحيـــاء

المرأة من نساء مدغشقر قد تترك ما تستره من أعضاء جسمها أشد الستر فى فرنسا معرضا للأنظار بلا تحرج، ولكنها تموت خزيا اذا ما تعرى ذراعها ! ومن ثم يتضح ان ثلاثة أرباع الحياء مسألة مستفادة بالتعليم أو التربية . ولعل الحياء هو القانون الاجتماعى الوحيد الذى لا يثمر الا السعادة .

وقد لاحظ من يراقبون حياة الطيور ان هذه المخلوقات تتوارى أو تنستر كى تشرب . وتفسير هذا انها تضطر عند الشرب الى غمس رأسها فى الماء ، وبذلك تضحى بغير واق أو عاجزة عن الدفاع عن نفسها فى هذه الآونة . واذا راجعنا رحلات كوك وأمثاله عرفنا ان اناث بعض الحيوانات البرية أو الضارية تتمنع فى نفس الوقت الذى تمنح فيه نفسها للذكور ..

ولست أعرف أساسا طبيعيا سوى هذا الظاهرة الحياء أوالاحتشام ، فالمصدرالصحيح لاستقاء المعلومات عن جنسنا البشرى هو الرجوع الى علم التشريح المقارن

والحب معجزة الحضارة. فنحن لا نجد لدىالشعوب البدائية أو المفرطة فى همجيتها الا ذلك النوع من الحب الجسدي الخالص .

واذ يقدم الحياء الى الحب كل ما يستطيعه الخيال من عون ، انما ينفخ فيه الحياة .

ان الحياء يعلم للفتيات الصغيرات من سن مبكرة جدا على يد أمهاتهن ، وبكل همة وتدقيق . وكأنهن بذلك يفرن ويحافظن على أجسادهن فى شخص بناتهن. وانما يدل ذلك ــ ان دل على شيء ــ على ان النساء يوجهن اهتمامهن وعنايتهن مقدما الى ما فيه سعادة عاشقيهن.

وليس أدعى لعذاب امرأة متحضرة ذات رقة وحياء من أن تكون قد سمحت لنفسها ــ فى حضور رجل ــ بتصرف تعتقد انه يبعث الحمرة الى خديها . وأعتقد ان اية امرأة من هذا النوع تفضل ــ ان كانت على شيء من الأنفة أو الكبرياء ــ أن تموت ألف مرة ، على أن يبدر منها شيء من هذا .

واذا ما بدرت من الرجل جرأة وان كانت هينة فى معاملته المرأة التى تحبه ــ كأن يظهر لها حبه بأسلوب جديد ــ كان ذلك سببا فى سرورها العظيم . أما اذا بدا عليه انه يلومها ، أو غير مسرور من تصرف لها ، اضطربت نفسها اضطرابا عظيما . ولذا فان للمرأة ذات المستوى الأرقى من المستوى العادى أو السوقى مصلحة ظاهرة فى أن يكون سلوكها شديد التحفظ . وهكذا لا تتكافأ الكفتان : فهى تجازف فى سبيل سرور وقتى أو لذة عارضة هى لذة التحرر فى ابداء عواطفها بالتعرض فيما بعد هذه اللحظة للذم القارص والشعور بالخجل والخزى . وأدهى ما فى هذا الشعور انه يسقط لاشعوريا على المحبوب، فيقل اقبالها عليه واعزازها له.

أجل ان امسية تقضيها فى المرح والبهجة معه وهى

غافلة أو غير ملقية بالها الى ما يكون من عواقبها ، خليقة أن تؤدى عنها هذه العاشقة ثمنا فادحا . ومن المؤكد ان مراى هذا الحبيب سيغدو بعد ذلك بغيضا اليها عدة ايام ، لأنه صار مقترنا فى سريرتها بالأخطاء التى ارتكبتها معه .

فهل فى وسعنا بعد هذا أن نعجب من قوة هذه العادة العاتية التى من شأنها أن تجزى على أهون الانتهاكات لها بتلك العقوبة الصارمة ، التى هى الخزى الموجع الضارى ؟

وقد تسأل عن جدوى الحياء ، فأقول انه أبو الحب. ولا سبيل لنا الى انكار هذه الأبوة وليس هناك ما هو أبسط من ميكانزم الحياء ، أى كيفية وأسلوب نشاطه، فالنفس تشغل بسببه بمشاعر الخزى والخجل بدلا من الانصراف الى الرغبة والشهوة ، وينجم عن ذلك أن تحرم النفس على ذاتها تلك الرغبات أو الشهوات التى يحظرها الحياء . وبديهى ان الرغبات والشهوات هى السبيل الى الاقدام على الأفعال .

فبديهى ان كل امرأة رقيقة ذات انفة وكبرياء (وهاتان الصفتان مترابطتان ترابط العلة بمعلولها أو السبب بنتيجته ، فيصعب جدا أن توجد احداهما بدون الأخرى) ينبغى أن تعود نفسها عادات الفتورالتى يسميها من يحبطهم أو يسيىء اليهم هذا الفتور تظاهرا بالاحتشام المفتعل ... فالمرأة الانجليزية الحسنة التربية على سبيل المثال ـ تعد اهانة جسيمة لشخصها وخدشا لحيائها أن يتفوه المرء أمامها باسم ملابس داخلية معينة . بل ان المرأة الانجليزية المهذبة تتحاشى كل التحاشى أن يراها الناس تغادر الصالون فى بيتها الريفى

عند ختام السهرة مع زوجها . وأدهى من هـــذا انها تعتقد ان اظهارها الهيام أو التدله الا فى خلوة تامة مع زوجها مهانة لها وانتهاكا لحيائها . وقد صورت قصـــة « كورين » هذه العادات السلوكية الانجليزية المسئمة تصويرا رائعا ، أثنت عليه كثيرا مدام دى ستايل .

ولعل هذا هو السبب فى ان الانجليز يرون من أصول الرقى والتهذيب اظهار الملل والضيق بسعادتهم البيتية. وهذا بالطبع افراط فى الـكبرياء .

ولـكنى اذ أنتقل مباشرة من بلايموث (الميناء الانجليزى) الى قادش أو اشبيلية فى اسبانيا ، أجـد حرارة الجو وحرارة العواطف بالتالى تدفعان النـــاس هناك الى الاسراف فى نسيان ضروريات الاحتشام ، وأرى الرجال والنساء يتبادلون بكثرة وعلى رءوس الأشهاد المداعبات الحسية المفرطة فى رقتها وخصوصيتها . ولـكن هـذا الافراط فى اغفال الحياء لا يحرك عواطفى الا بشىء من النفور . فليس هناك ما هو أشـد ايلاما من مثل تلك المشاهد الفاضحة .

* * *

وينبغى أن نتوقع عنـد احصـاء أو استقصاء قوة العادات التى تلقن للنساء بحجة الحياء ، أو بذريعـة منه ، أن نجد هذه القوة تتجاوز كل ما فى الحسبان . مع ان المرأة العامية أو السوقية تعتقد وهى تنبذ الحياء والاحتشام انها تجعل من نفسها بذلك السلوك المتحرر ندا للمرأة الراقية . ومرجع هذا اللبس الى ان سلطان الحياء من القوة بحيث يجعـل من الأسـهل على المرأة الرقيقة أن تفضح مشاعرها تجاه حبيبها بالأفعال ، لا بالأقوال !

وقد روت لى بالأمس مساء امرأة هى اجمل وأغنى وأسهل نساء بولونيا نادرة عن شاب فرنسى عظيم المكانة مقيم هنا ـ وهو مثل سيىء لشباب أمته ـ احتال حتى اختبأ تحت فراشها . ويبدو انه أراد الا يضيع هباء عددا لا يحصى من مغازلاته ومطارحاته الغرامية لها ، كان يطاردها بها منذ شهر . ولكن هذا الرجل العظيم لم يكن على شيء كثير من حضور البديهة ، فقد تريث الى أن صرفت هذه السيدة وصيفتها ودخلت فراشها ، ولكنه لم يطق صبرا الى أن يخلد أهل البيت للنوم ، وخرج من مكمنه متسرعا ، فجذبت حبل الجرس ، وهرع اليها خدمها فطردوه شر طردة وهم ينهالون عليه صفعا وركلا .

وعندئذ سألت هذه السيدة ا

ـ وهل كان الموقف يختلف لو انه تذرع بالصبر ساعة أو ساعتين ؟

فأجابتنى بكل صراحة :

ـ أوه ! ماكان أتعسنى عندئذ ، لأنه ماكان بمقدورى أن أهدده بالطرد ، أو استدعاء الخدم ، لأنه كان خليقا أن يهددنى قائلا : « ومن الذى يشك الآن فى اننى جئت الى مخدعك برضاك ، وطبقا لاتفاق وتواطؤ معك » فلا احير جوابا، وأفضل الاستسلام على الفضيحة أو المجازفة بسمعتى !

وما أن خرجت من لدن هذه المرأة الحسناء حتى توجهت الى بيت أجدر النساء فى نظرى بالحب . وهى رائعة الجمال ، ولكن رقتها المفرطة تفوق جمالها الرائع فى قوة التأثير ، ان كان فى الامكان تصور شيء يمكن أن يفوق كل هذا الحسن ! ووجدتها وحدها ، فقصصت

عليها ما سمعته من فم السيدة السابقة . ودار بيننا نقاش حوله ، فأدهشني أن تقول لي :

ـ اسمع ! لو كان هذا الرجل الذى سمح لنفسه بالاقدام على هذا العمل الجرىء محببا الى قلب هذه المرأة من قبل ، ثق انهاكانت خليقة أن تصفح عنه وتحبه أكثر من ذى قبل !

وأعترف انى ظللت مذهولا من هذا الضوء الذى ألقى ـ على غير انتظار ـ على أعماق القلب البشرى . ولذت بالصمت برهة طويلة ، ثم قلت لها متسائلا :

ـ ولكن ، هل يقدم الرجل الذى يحب حقا وصدقا على استخدام مثل هذا العنف والاقتحام ضد المرأة التى يحبها ؟

وظل تساؤلى بغير جواب حاسم .

* * *

وفى لحظة من لحظات الصراحة الفلسفية قالت لى امرأة أعرفها :

ـ لو فرطت يوما ما فى حريتى ، فلابد أن الرجل الذى أوثره بقلبى سيقدر بمزيد من القيمة والاعزاز ما أخصه به من المشاعر ، لما آنسه من شدة شحى وبخلى بهذه المشاعر .

وعندئذ أدركت انها لأجل هذا الحبيب ـ الذى لعلها لن تعثر عليه أو تلتقى به ـ تظهر كل هذا البرود تجاه الرجل الذى تتحدث اليه فى هذه اللحظة ... وهو انا!

وفى اعتقادى ان مثل هذا الحب يتسنى كثيرا فى أحلام اليقظة التى تعيش فيها النساء العفيفات الفاضلات ، ومعهن فى هذا كل الحق .

ويبدو لى ان الاحجام عن الحب حينما يوهب المرء من السماء نفسا خلقت للحب ، معنـــاه حرمان الذات وحرمان الطرف الآخر من سعادة عظمى . وما أشــبه ذلك بشجره برتقال شهى تمتنع عن الأزهار ، اعتقادا منها ان هذا الازهار الذى خلقت له انما هو خطيئة ! ولا يغيبن عن بالك ان النفس التى خلقت للحب حقـا لايمكن أن تتذوق السعادة الا فى الحب ، لأنها تجد لذات الحياة عدا الحب فارغة فراغا لا يطاق . وكثيرا ما تخال انها تحب الفنون الجميلة ، ومناظر الطبيعة الرائعة ، بيد ان هذا كله لا ينفك يغريها بالحب ، ويحضها عليه ويجسمه لها ، فتوقن ان كل ما فى الـكون من الجمال انما يحدثها عن هذا الشىء الذى حرمته على نفسها !

* * *

والنقيصة الوحيدة التى أعيب عليها الحياء انه قد يقود الى تعود الـكذب . وتحاشى الكذب أو الخلو منه هو المزية الوحيدة التى ترجح بها كفة النسـاء السهلات المنال على النساء العفيفات ، ذلك انهن غير متصنعات ، ومنساقات مع مشاعر اللحظة . فالمرأة السهلة المنـال تقول لك :

ــ ياعزيزى ، ما دمت تروقنى ، فأنا أصدقك القول انك تعجبنى بلا مواربة !

امرأة سهلة ، ولـكنها ــ على الأقل ــ صادقة !

الفصل الثامن :

كبرياء الأنثى

ظفر « نيلو ديلا بيترا » بيد السيدة « بيا » ، الوريثة الوحيدة لآل تولومى ، أثرى وانبل الأسر فى سيينا . وكان جمالها مثار اعجاب جميع أهالى توسكانيا ، مما أوقد فى قلب زوجها غيرة ملتهبة ، زاد من اتقادها ما ترامى اليه من علاقات لها مريبة ، الأمر الذى أفضى به الى اتخاذ خطة رهيبة مروعة . ومن العسير أن نقطع اليوم برأى فى مدى براءة زوجته . ولكن دانتى يصورها لنا آية فى البراءة .

وذهب بها زوجها الى مستنقعات سيينا ، وهى بقعة مشهورة بوخامة هوائها ووباله على الصحة . ولم يفض قط الى زوجته المسكينة بالسبب الذى حدا به الى نفيها فى مثل هذا الموضع الخطر. ولم يسمح له كبرياؤه بالتفوه لأحد بالشكوى منها أو باتهامها . وعاش معها وحيدين ، فى برج مهجور ، ذهبت بنفسى وشاهدت ، اطلاله الباقية الى اليوم على شاطىء البحر . ولم يحطم قط صمته المتعالى الطافح بالازدراء ، ولم يرد قط على أسئلة زوجته الشابة ، ولم يصغ قط الى توسلاتها . ولبث مقيما معها بكل فتور انتظارا للهواء المسموم الموبوء أن يفعل فيها فعله .

ولم يطل به الانتظـــار ، فسرعان ما فعلت أبخرة المستنقعات فعلها فأذبلت ملامحها التي يقال انها كانت أجمل ملامح فى زمانها على تلك الأرض . وماتت بعد أشهر معدودات . ويقول بعض الرواة ان « نيلو » استخدم الخنجر للتعجيل بنهايتها . وهى على كل حال قد ماتت وسط المستنقعات بصورة مروعة ، وظلت وفاتها الغامضة لغزا خافيا حتى على معاصريها . وعاش بعدها « نيلو ديلابيترا » ، ولكنه قضى بقية أيامه فى صمت لم يهتك حجابه قط .

وما من شيء أنبل ولا أرق من الأسلوب الذى وجهت به الشابة «بيا» القول الى دانتى. فقد تمنت أن تتذكرها الصديقات اللواتى غادرتهن وهى فى ميعة الصبا على الأرض ، وحين ذكرت له اسمها وحددت له من هو زوجها ، لم تشأ أن تسمح لنفسها بأتفه شكاة من قسوته التى لم يسمع بمثلها . وكل ما قالته عنه انه يعرف جيدا قصة موتها .

وهذا التمسك بالكبرياء ، والانتقام لها ليس معروفا الا فى أقاليم الميدى .

وقد اتفق لى أن أكون — بغير ارادة منى — شاهدا فى بيدمونت على واقعة قريبة الشبه بالحادث سالف الذكر ، ولكنى كنت حينئذ أجهل التفصيلات . فقد بعثونى مع خمسة وعشرين فارسا الى غابة على امتداد «لاسيسيا» كى أمنع التهريب. فلما وصلت فى المساء الى ذلك الموضع الموحش المقفر لمحت بين الأشجار أطلال حصن قديم ، فتوجهت اليه ، وكم كانت دهشتى عندما وجدته مأهولا .

ووجدت فيه أحد نبلاء الاقليم . وهو رجل عابس الوجه ،

يبلغ طوله ستة أقدام ، وتبلغ سنه الأربعين ، فمنحنى حجرتين على مضض وهو مقطب الجبين . ورحت أعزف فيهما الموسيقى مع رقيب السرية . وبعد عدة أيام اكتشفنا ان ذلك الرجل يحتفظ هناك بامرأة ، رحنا نطلق عليها اسم « كامى » على سبيل الدعابة والمزاح، فقد كنا بعيدين عن تخمين الحقيقة المروعة . وقد ماتت هذه المرأة بعد ستة أسابيع . وقويت عندى الرغبة فى رؤيتها وهى فى تابوتها ، فرشوت راهبا كان يحرس جثتها فى الكنيسة . وقرابة منتصف الليل أدخلنى الكنيسة خلسة بحجة رشها بالماء المقدس ، فوجدت لها شكلا من أبدع الأشكال . حتى وهى فى قبضة الموت. وكان لها أنف أقنى لن أنسى قط ما فيه من شمم ونبل ورقة .

وقد غادرت ذلك المكان الفظيع الكئيب بعد خمس سنين ، لأن فصيلة من فرقتى صحبت الأمبراطور عند ذهابه كى يتوج ملكا على ايطاليا . وفى تلك الرحلة عرفت القصة بحذافيرها . وعلمت ان ذلك الزوج الغيور، وهو الكونت ... كان قد وجد ذات صباح ساعة انجليزية معلقة على فراش امرأته ، وهى ساعة يعرف انها مملوكة لشاب يقطن مدينة صغيرة مجاورة .

وفى ذلك اليوم نفسه اقتادها الى ذلك الحصن المهدم، وسط غابة «لاسيسياء» وعلى غرار «نيلو دىلابيترا » لم ينبس عن هذا الموضوع ببنت شفة ، ولم يخاطب لسانه لسانها قط . وعندماكانت تتوجه اليه بالرجاء والضراعة كان يشير لها فى برود صامت الى الساعة التى كان يحتفظ بها دائما فى جيبه . وقضى على هذه الوتيرة زهاء ثلاث سنوات معها بمفردهما . وأخيرا قضت نحبها

قبل الأوان وهى فى ميعة الصبا . وحاول هذا الزوج أن يطعن بالسكين صاحب الساعة ، ولكنه أخطأه ، وانتقل الى «جنوا» ، ومن هناك أبحر على ظهرسفينة ، ولم يسمع أحد بعد ذلك أى نبأ عنه ، ووزعت ممتلكاته على ذوى قرابته الأدنين .

* * *

والمرء الذى يتلقى الاهانات ويتحملها بسماحة مزدرى من لدن النساء ذوات الكبرياء ، وذلك أمر مرجعه الى ما تعوده الناس فى الحياة العسكرية من سرعة الحركة ، مما يحدو بهذه النفوس المتكبرة الى اعتقاد الجبن فيمن لايبادرون فى سلوكهم معهن الى الاقتحام . ومن عادة المتغطرسات أن يستسلمن بسرور للرجال الذين يخاشنون سواهم من الرجال ولا يتحملون منهم شبهة اهانة . مما يحمل بعض الرجال على التحرش بمن حولهم استجلابا لاعجاب حبيباتهم أو تجنبا للخصام والملاحاة معهن .

وسأروى الآن قصة «مس كورنبل» ، الممثلة المشهورة فى لندن ، التى رأت ذات يوم الكولونيل الثرى الذى يحميها وينفق عليها يدخل عليها فجأة ، وكانت حينئذ مع عاشق لها شاب تستلطفه كثيرا ، فقالت للكولونيل وهى فى أشد حالات الاضطراب :

ــ هذا هو مستر فلان الذى حضر لمشاهدة المهر الذى أرغب فى بيعه .

فقال الشاب الوسيم الجرىء على الفور :

ــ بل أنا هنا لغرض مختلف عن ذلك تمام الاختلاف .

فكان ذلك دافعا على شدة التعلق به ، وسرعان ما أصبحت عشيقته المدلهة !

وهكذا تعجب النساء بالجرأة العادية ، أما العظمة الخارقة فلا يدركنها ، لأن العظيم كالنسر ، كلما ارتفع فى الجو قل خجمه فى نظر الواقفين على سطح الأرض ، وصعبت رؤيته ، وعوقب على عظمته بوحدة روحية وعاطفية قاسية .

ومن كبرياء الأنوثة يولد ما تسميه النساء « قلة اللياقة » ، وهذا شيء شبيه بما يسميه الملوك « العيب فى الذات الملكية » ، وهى جريمة أخطر ما فيها ان المرء ينزلق اليها من غير قصد ، ومن غير أن يدرى . فالعاشق الرقيق ، بل الشديد الرقة ، يمكن أن يتهم بانتهاك اللياقة اذا ما ترك العنان لعواطفه واستمتع بسعادة الحب على سجيته وكان وفق ما تمليه عليه طبيعته تماما مع من يحبها ، من غير أن يكون لبقا سريع البديهة خفيف الروح .

ويرجع الوقوع فى هذا المزلق الى ما تعوده الرجل من الصراحة التامة مع أصدقائه الرجال ، فيحسب ان الصراحة التامة مع الحسان مطاوبة أيضا ، فيصدقهن القول ، وقد يصارحهن بما فيهن من هنات ، بدلا من تملقهن بالثناء ، ويعاملهن بالعدل بدلا من معاملتهن بالتودد والملق !

فلا يغيبن عن بال الرجل الذى يريد أن يكون مقبولا لدى النساء انه يتعامل مع كائنات من نوع خاص ، استقر فى نفوسهن انهن اما ناقصات المواهب ، أو ان هذا ظن الناس بهن ، ومن ثم سلوكهن التعويضى عن هذا الشعور العميق بالدونية ، وشدة حساسيتهن للنقد ولو بالحق ، وطلبهن سماع ما يرضى غرورهن ، الذى هو الوجه الظاهر لشعورهن الباطن بالدونية .

ولكن أفلا ينبغى أن بعد كبرياء المرأة عنصرا من عناصر قوة العاطفة التى تلهمها للرجل الذى يحبها ؟ وأذكر فى هذا السياق حادثة معروفة ، فقد كانت للملكة زوجة فرانسوا الأول وصيفة على علاقة حب بشاب فى البلاط، وكانوا يمازحونها بأنه لايحبها . وبعد فترة وجيزة أصيب هذا الشاب بمرض عضال ، ولما نقه منه صار أخرسا عاجزا عن النطق . وحضر الى البلاط على هذه الصورة . والتقت به الوصيفة فى احتفال البلاط . وفجأة نظرت اليه وقالت بكل قوتها :

ـ تكلم !

وتكلم الفتى ، وبرىء من علته تماما . ونظرت هى الى الجميع من حولها ، وكأنها تقول لهم مزهوة :

ـ أرأيتم كم يحبنى ، وما مبلغ سلطان حبى عليه ؟

الفصل التاسع :

شجاعة النساء

جاء فى رواية ايفانهو ، للسير والترسكوت هذه العبارة :

« أقول لك أيها الفارس المعبدى المزهو ببسالته ، انك لن تبلغ فى أضرى المعارك التى خضتها مبلغ الشجاعة التى تظهرها المرأة عندما يدعوها الى ذلك داعى الحب أو داعى الواجب ! » .

وأذكر انثى صادفت العبارة التالية فى كتاب من كتب التاريخ :

« طاش صواب جميع الرجال ، فكانت هذه اللحظة هى التى ظهر فيها تفوق النساء الحاسم عليهم ! »

فلدى النساء احتياطى من الشجاعة ليس له نظير لدى عشاقهن ، فهن شديدات الحساسية لما يخدش الكرامة وعزة النفس فيما يتعلق به ، ويجدن لذة كبرى فى امتحان شجاعتهن بنار المخاطر لانتزاع تاج العزيمة والهمة والاقدام من ذلك الرجل الذى يجرح عزة نفوسهن بما يزهو به من القوة وما يفرضه عليهن من الحماية . فاذا بهن يرتفعن الى مستويات تعلو على المخاوف التى تخور لها قلوب الرجال . وهذا يثبت بالدليل القاطع ان الخوف ليس فى الأشياء ، بل فى ذوات نفوسنا ! وانى اجزم ان الرجال اذا كان لديهم مدد من الغيرة على دواعى

القلب أو دواعى الواجب يبـــدون من فنون الشجاعة والتضحية ما لايقل عن شجاعة النساء فى تلك الأحايين.

وليس معنى هذا انى أرمى الى التقليل من شجاعة النساء. فقدشهدت فى مناسبات كثيرة آيات لها ترفعهن فوق مستوى أشجع الرجال . ولكن لابد فى هذه الحالة من أن يكن عاشقات ، وأن يكون الحبيب فى خطر. فالمرأة العاشـــقة لا يكون لها احساس الا بمن تحب ، وهكذا تغدو أفدح الأخطار الشخصية المباشرة فى نظرهن أشبه بوردة يقطفنها فى حضرته ، أو حماية له .

ولست أنكر اننى وجدت أيضا لدى النســــاء غير العاشقات اقداما بالغ الهدوء ، يثير أعظم الدهشة لأنه يدل على موت أعصـــابهن . ولـكننى أرجح انهن لسن شجاعات الى هــذا الحد الا لأنهن لم يجربن ما جربه الرجال من آلام الجراح فى الحروب .

* * *

أما الشجاعة الأدبية أو المعنوية ، وهى أسمى بكثير من الشجاعة الأخرى ، أى المادية ، فحسب المرأة دليلا على تمتعها بها تلك الصلابة التى تبديها فى مقاومة داعى الاستسلام للحب ، فتلك الشجاعة فى نظرى أدعى ما يكون الى الاعجاب . وكل آية أخرى من آيات الشجاعة الممكنة لا تكاد تكون لها قيمة تذكر بالقياس الى شىء كهذا يناقض أشد المناقضة دواعى الطبيعـــة ، وليس كالألم الذى سببه ألم فى الدنيا . ولعلهن يجدن مددأ لهذه الشجاعة القصوى فيما تعودنه من التضحية التى يفرضها الحياء عليهن منذ نعومة أظفارهن .

وأكبر سوء طالع للنساء ان دلائل هذه الشجاعة تظل دائما مجهولة من الناس ، ولا يمكن غالبا البوح بها أو

التعرف عليها ، لأنها عمل سلبى محض فى الظاهر .

وأسوأ ما فى هذه الشجاعة الأدبية انها كثيرا ما تكون على حساب سعادتهن .

ولعل أعظم ما يساند المرأة غالبا فى هذه الشجاعة ما يجدنه من ارضاء كبريائهن بما يبدينه من دفاع مجيد عن عفتهن ، وما يعتقدنه من ان الدافع الأساسى للعاشق الى الظفر بوصالهن انما هو ارضاء غروره . وهى فكرة تعسة . فالمحب الحقيقى ليس لديه فسحة من الوقت أو هدوء البال للتفكير فى غروره الشخصى .

وسأروى هنا شيئا خبرته بنفسى هذا اليوم . فقد مررت فى هذا الصباح (٣ من أغسطس) فى نحو الساعة التاسعة ، على صهوة جوادى أمام الحديقة الانجليزية الطراز التى يملكها المركيز زمبيرى على سفوح التلال التى تجلل قممها الأشجار العالية ، ومنها تقع العين على أجمل مناظر سهل «لمباردبا» الأخضر الناضر ، أجمل أقاليم الدنيا . وعند خميلة فيها أشجار الفار الجميلة المطلة على الطريق الذى اجتازه رأيت الكونت «دلفانتى» شارد الذهن ، كمن يحلم وهو يقظان .

وكنا قد قضينا السهرة معا لدى الكونتس «جيجى» حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل . وبلغ من شروده انه لم يكد يرد على تحيتى . ومضيت فى طريقى ، وعبرت نهر رينو . ثم عدت من نفس الطريق بعد ثلاث ساعات على الأقل ، فوجدته لم يزل هناك ، مستندا الى جذع شجرة ، فى نفس الوضع الذى تركته فيه آنفا .

وما ان لمحنى حتى أقبل نحوى والدموع فى عينيه ، راجيا منى الا أخبر أحدا بما رأيته من شروده وجموده

تلك الساعات ، فتأثرت واقترحت عليه أن أتوقف عن مواصلة طريقى وأعود معه لقضاء بقية اليوم فى الريف.
وبعد ساعتين من التبسط ، أفضى لى بكل شىء . فهو يعتقد انها لا تحبه. وليس هذا رأيى. فلا أحد يستطيع أن يقرأ شيئا على محيا الكونتس «جيجى» المرمرى التى قضينا عندها سهرة الأمس ، وكل ما هناك ان حمرة خفيفة مفاجئة لاتستطيع مغالبتها تظهر فجأة لتشى بتلك المشاعر التى تقاومها الكبرياء الأنثوية الطاغية أشد المقاومة . وعندئذ يحمر أيضا عنقها المرمرى وما يبدو للناظرين من كتفيها البديعتين ... وقد رأيت بعينى هذه الحمرة تكسوها من رأسها الى قدمها أمس على اثر عبارة معينة تفوه بها «دلفانتى» لم ترقها ، ذلك ان هذه المرأة المتعالية وجدته أقل جدارة بما مما تظن ! وذلك دليل على انها تفكر فيه كحبيب !

الفصل العاشر :

فى ارتفاع التكليف

أعظم سعادة يمكن أن يمنحها المحب لعاشق ، هو أول ضغطة يد من كف المرأة التى يحبها . أما سعادة الرجل اللعوب أو المغازل فأشد التصاقا بالواقع ، وأقرب الى روح الدعابة والمزاح . ذلك ان الحب العاطفى كله جد ورهبة ، وارتفاع التكليف فيه ليس هو السعادة الكاملة ، بل هو الخطوة الأخيرة للوصول الى السعادة .

ولكن كيف نصور السعادة ، ان لم تترك فى النفس ذكريات ؟

وأضرب على هذا مثلا ما حدث «لمورتيمر» عندما عاد من رحلة له طويلة فى أرجاء القارة الأوربية ، وكان يعبد «جينى» . وكان قد كتب اليها رسائل كثيرة ، ولكنها لم ترد على أية رسالة منها . وما أن وطئت قدماه لندن حتى امتطى صهوة جواده وذهب للقائها فى منزلها الريفى . ووجدها عند وصوله الى هناك تتنزه فى الحديقة ، فجرى اليها واجف القلب ، ومدت اليه يدها واستقبلته مضطربة اضطرابا واضحا ، فأدرك أنها تحبه . وذرع معها أرجاء الحديقة المترامية ، واشتبك ذيل ثوبها الطويل فى نبات شائك . وسعد «مورتيمر» جدا . وظل سعيدا مدة من الزمن ، ولكن «جينى» خانت حبه ، الأمر الذى

كاد يطيش صوابه . وقلت لمورتيمر انها لم تحبه قط ، فراح يقيم لي الدليل على انها أحبته من طريقة استقبالها اياه عند عودته من أوروبا ، بيد انه عجز تماما عن ذكر أي شيء من التفصيلات الدالة على صحة اعتقاده بحبها. وكل ما هناك انه كان يرتجف كلما وقعت عينه على نبات من فصيلة ذلك الشجر الشائك. فقد كان هذا في الواقع هو الذكرى الوحيدة الواضحة التي احتفظ بها لأسعد لحظات حياته .

وقد أفضى لي الليلة رجل رزين يتسم بالصراحة ، وهو فارس سابق بقصة غرامياته ، وأوصاني الا أبوح بها ، ولكن من حقي أن أستخلص منها عبرتها . ومؤدى هذه العبرة ان لحظة رفع التكليف أشبه بتلك الأيام البديعة من شهر مايو، حيث تتفتح أجمل الأزهار. ولكنها أيضا يمكن أن تكون لحظة قاضية على آمال المحب أن قوبل بالاعراض والصد .

* * *

وليس في الامكان المبالغة في اطراء السلوك الطبيعي ، أي السلوك على السجية ... فهذا السلوك هو الوحيد المسموح به في علاقة جدية كالحب على طريقة فيرتر ، وهو حب لا يدري المرء فيه الى أين هو ذاهب . وهذا السلوك الطبيعي هو في الوقت نفسه أفضل خطة مدبرة أو تكتيك ، لأن العاشق في هذه الحالة فعلا يتفوه ــ وهو لايدري ــ بأقوال بديعة ساحرة ، وكأنه يتكلم لغة لايعرفها !

وتعسا للرجل المتكلف ، مهما ضؤلت درجة تكلفه ! فمثله ــ حتى حين يحب ، ولو كان أذكى الناس وأسرعهم بديهة ــ خليق أن يفقد ثلاثة أرباع مزاياه . ومتى انزلق

للحظة واحدة الى التكلف ، أحس الجفاف والجدب فى اللحظة التالية .

ان فن الحب بأكمله ينحصر ، فيما يبدو لى ، فى أن يقول المحب ما تمليه عليه نشوة اللحظة ، اى بعبارة أخرى ، فى الاصغاء لصوت روحه ، وينبغى ألا يذهب الظن الى ان هذا أمر سهل ، فالمرء الذى يحب حقا لا يجد القوة على الكلام حينما تقول له حبيبته كلمة تطير به على أجنحة السعادة .

وهكذا يفقد الأفعال التى كان من الممكن أن تولدها كلماته . وهذا الضرب من الخجل أو التهيب وهو خجل حاسم منحكم ، هو أكبر دليل على ان المرء عاشق حقيقى وليس هازلا صاحب مجون أو طالب مغازلة . وانه لخير للمرء أن يصمت من أن يقول كلاما فى غير موضعه الصحيح وان كان شديد الرقة . فما كان ملائما منذ عشر ثوان ، قد لا يكون ملائما الآن على الاطلاق .

وما من مرة خالفت فيها هذه القاعدة وقلت شيئا كان قد خطر ببالى منذ ثلاث دقائق ، ووجدته حينئذ جميلا ، الا وغضبت منى صاحبتى . وكنت أقول لنفسى بعدها انها على صواب . فالنساء الرقيقات الذكيات لايخشين شيئا فى الدنيا قدر ما يخشين زيف عواطف عاشقيهن . ولذا فأهون زيف أو انحراف عن الصدق التام فى أى تفصيل من التفصيلات يحرمهن على الفور من كل سعادة ، ويلقى فى نفوسهن الشك والحذر .

وحينما يتسبب الاستياء أو الغيرة فى القاء بعض الفتور ، ففى الوسع بصفة عامة الخوض فى بعض الموضوعات الملائمة لتولد هذه النشوة ، أو هذا السكر المواتى للحب . واذا حدث بعد العبارة أو العبارتين

الافتتاحيتين أن العاشق وفق الى قول ما توحى به اليه روحه بدقة وأمانة ، أحـدث ذلك سرورا عميقا لدى المحبوبة .

وأفدح خطأ يتردى فيه معظم الرجال انهم يريدون بجدع الأنف التوصل بأى شكل الى قول عبارة معينة وجدوها فى خلوتهم مع أنفسهم جميلة دالة على الذكاء والفطنة ومحركة للعواطف ، بدلا من تخليص روحهم من شكليات العالم أو المجتمع ورسمياته ، الى أن يبلغوا درجة التخلص من التكلف ، ورفع الـكلفة ، والصدور عن السجية والطبع بحيث يعبرون ببساطة عما يحسونه فى أعماقهم فى اللحظة الراهنـة فعلا . ومن أوتوا تلك الشجاعة يجدون الجزاء الحسن فورا بالقربى الحقيقية من المحبوبة ، وزوال نفورها أو استيائها أو تحفظها .

وهذا الجزاء الأوفى الناجز والتلقائى للسرور الذى يدخله العاشق على نفس محبوبته هو الذى يرتفع بهذه العاطفة فوق سائر العواطف آمادا بعيدة .

واذا ما سادت التلقائية الطبيعية أو العفوية بتمامها امتزجت سعادة العاشقين وصـارت شيئا واحـدا ، فكأنهما يصدران عن نفس واحدة فى أفكارهما وأفعالهما ، وهذه أعظم سعادة يمكن أن تتاح للبشر ، بسبب التعاطف وما اليه من قوانين تنظم طبيعتنا البشرية .

ولابد هنا من محاولة تحديد معنى هـذه العفوية الطبيعية ، لأنها الشرط الضرورى للسعادة فى الحب .

ويطلق اسم العفوية الطبيعية على ما لا يحيد عن النهج المعتاد فى التصرف . وغنى عن القول انه لاينبغى الامتناع بالـكلية عن الـكذب على المحبوب فحسب ، بل يجب

أيضا الامتناع عن تزويق الحقيقة المجردة وتشويه نقاء وصفاء هذه الحقيقة. ذلك ان المرء حين يشرع فى التزويق والتجميل ينشغل باله وينصرف اهتمامه الى هـذا التجميل ، وينقلب صانعا ، وذلك مباين لحال البساطة والعفوية ، ولا يتفق مع ما يلتمع فى عينيه من احساس غلاب .

وعلى الفور تلحظ الحبيبة الفطنة هـذا التباين ، ويبدو ذلك فى فتورها الذى تحسه ، وقد تتجه بعد ذلك الى الفندرة والتكلف بدلا من الانسياق مع سجيتها. أو ليس ذلك مما يصعب حب المرأة الفطنه ، ويسهل حب المرأة ذات الذكاء الهابط أو المحدود ؟ فأمام مثل تلك المرأة يستطيع المرء أن يزيف ويزوق ويزخرف من غير أن يفتضح أمره ، وبغير تعقيب أو عقاب من قبلها. والناس يستسهلون الزيف والخداع، جريا على ماتعودوه فى سائر أمور الحياة التى لا يجرى فيها الناس مع مقتضيات الطبع العفوى . وهكذا لا يعود الحب المزعوم حبا على الحقيقة ، بل يتردى الى درك الصفقات العادية فى عالم التجارة . وكل الفرق ان الصفقات الأخرى يربح المرء منها مالا ، وهذه الصفقة يجنى منها لذة ، أو ارضاء غرور ، أو مزيجا من هذين الأمرين معا .

ولكن من العسير الا يحس المرء شيئا من الازدراء للمرأة التى يستطيع من غير أن تكشف خبيئته ، ويمكنه أن يمثل عليها مهزلته المرجلة بغير تعقيب منها أوعقاب. وهذا شيء مختلف تماما عن الحب الذى يتملك القلب ويملى عليه تصرفاته من غير أن يملك من أمر نفسه شيئا.

ونعود الى معنى ما هو طبيعى عفوى ، فنجد الطبيعى شيئا يختلف عن المعتاد أو العادى . فلو أخذنا اللفظين

بمعنى واحد ، لوجدنا ان المرء كلما زادت حساسيته صعب عليه أن يكون تحت سلطان العادة ، لأن العادة أقل سلطانا عليه من الطبع ، بحيث يجد نفسه فى حالة صراع عند كل موقف ! يفعل بمقتضى العادة ، أم بما تمليه عليه حساسيته الخاصة .

ومن ثم نجد جميع صفحات الكائن الفاتر أو البارد القلب متشابهة ، أو هى هى بعينها ، أمس واليوم وغدا . أما الشخص الحساس حقا فمتى تحرك قلبه لم يجد فى سريرته أثرا للعادة يهتدى به فى أفعاله وتصرفاته، وكيف يتسنىله أن يمضى فى طريق لاترشده اليه عواطفه المتقدة ؟

انه ليحس الوزن الهائل لكل كلمة يتفوه بها أمام محبوبته ، ويخيل اليه ان مصيره قد يتوقف على لفظ واحد مما يقوله . فكيف يتسنى له اذن ألا يتحرى احسان المقال ؟ أو على الأقل كيف يتسنى له ألا يحس انه أحسن القول ؟ وبالتالى لن يكون بالبساطة أو السذاجة أو التلقائية التى نتحدث عنها ؟

الواقع انه لابد مما ليس منه بد ، فليحس ما يقوله، وليتحر اتقان القول وانتقاءه ولكن من غير حذلقة أو تكلف يفسد التلقائية . وبذلك يكون طبيعيا وتلقائيا « على قدر الامكان » . وذلك حسبه . وستكونحرارته ونبرة الصدق فى صوته هى الدليل على هذا الصدقغير المتكلف .

واحسب اننا بهذا وصلنا الى آخر درجة من درجات السلوك الطبيعى أو التلقائى الذى يمكن أن يدعيه لنفسه قلب العاشق الرقيق .

فالعاشق الصادق الأمين اذن لا يسعه الا أن يألوا

على نفسه الا يخالف الحقيقة ، وأن يكون الترجمان الأمين لمشاعره ، وأن يتمسك بهذا العهد مثلما يتمسك الغريق فى اللجة بالطوق العائم أو طوق النجاة .

والسلوك الطبيعي فى الحركات أصعب على العاشق المتيم من السلوك الطبيعي فى الأقوال والحديث ، مع ان العادات الحركية أشد تأصلا فى العضلات من عادات التعبير . فأنا مثلا كلما مددت ذراعى كى أتأبط ذراع حبيبتى ليونورا ، كنت أشعر اننى على وشك التعثر او السقوط وأنا أمشى بها ، فلا يسعنى الا التفكير طول الوقت فى خطواتى .

فكل ما يستطيعه المرء فى مثل هـذه الأحوال الا يكون متكلفا طواعية وباختياره . ويكفى فى هذا أن يكون مقتنعا بأن أسوأ الأخطاء التى يرتكبها هى التكلف فى الحركة وتعمد الرشاقة والخفة ، لأن الحبيبة عندئذ لن تفهمك ، ولن يتسمع قلبها قلبك ، وبذلك تجنى عليك حركاتك العصبية اللا ارادية ، وتخسر التجاوب بين صراحتك وصراحتها ، وبالتالى تخسر كل فرصة لك فى استهوائها او اغوائها . فالمرأة الرصينة العفيفة لن تهب نفسها لمن تحب الا حينما تعجز عن المقاومة . وأقل شك لديها فى صدق واخلاص العاشق يجعلها تجفل وتتراجع ، وذلك يضيع على العاشق انتصاره الحاسم ، أو يؤجله كثيرا على الأقل .

الفصل الحادى عشر :

الإفضــــاء

ليس فى الحياة ما يستجلب العقاب على مقترف الخطأ مثل الاقدام على افضاء العاشــق الجاد بمكنون عاطفته الى صديق حميم . ذلك ان هذا الصديق يعلم – ان كان ما أفضيت به اليه حقا – انك تنعم بملذات تفوق ملذاته ألوف المرات ، وتزرى بها أيما ازراء .

والأمر أسوأ من هذا بمراحل فيما يتعلق بمثل هــذا الافضاء بين امرأتين ، ذلك أن أقصى ما تطمح اليه حياة المرأة أن تلهم رجلا العشق أو الحب العاطفى الجارف . ثم ان هذه المفضية بما فى قلبها تثير غيرة صاحبتها لأنها فى عين عاشقها أجمل الجميلات .

ومن جهة أخرى نجد العاشق الذى أكل الحب عقله وأفقده اتزانه أحوج خلق الله الى من يستمين بعقــله المتزن كى يسترشد به ويعوضه عن تفكيره الذى أخل به الهوى الجارف ، وليحل له ألغاز الشكوك التى تستبد بروحه فى كل آن . فمن شأن هذه العاطفة الرهيبــــة العاصفة أن يعتقد العاشق ان كل ما يتصوره خياله فهو واقع ملموس !

وقد تبحث المرأة العاشقة أو المعشوقة عن موضــع لسرها لدى صديقة فاذا بها صديقة خبيثة الطوية غادرة أو ضجرة بحياتها الخاوية ضيقة بها .

وقد يحدث أن أميرةعالية المقام، فىالخامسة والثلاثين من عمرها ، ضجرة سأمانة بحياتها ، ولـكنهامع هـذا تضج بالحيوية والرغبة فى النشاط والحركة ، فلا تجد امامها الا مجال حبك المكائد والمؤامرات وما الى ذلك . ولما كانت ساخطة لفتور عواطف حبيبها ، وهى فىالوقت نفسه لا امل لديها فى مولد حـب جـديد ملتهب ، ولا تدرى ماذا تصنع بطاقتها الحيوية التى تأكل اعصابها أكلا ، ولا تعرف لنفسها تسلية وملهاة سوى الافراط فى المزاج القاتم الذى يدفع للايذاء وفعل الشر ، ولذا فهى لا تستطيع ان تعثر لنفسها على مشغلة ـ أى على لذة وغاية للحياة ـ الا فى احباط حب حـقيقى واتعاس أصحابه ، لا لشىء آلا لأنه حب وقح تجاسر على الاتجاه الى امرأة سواها من دونها شخصيا ، فى حين ان حبيبها يغط فىالنوم حين يرقد الىجانبها فىالفراش!

وهذه هى الحالة الوحيدة التى فيها تلهم الـكراهية والحقد والسعادة لامرأة ، لأنها حالة تمدها بما يشغل فكرها وترضى غرورها أو تنقم له .

ومنذ اللحظات الأولى من الاقدام على هـذه الخطة الخسيسة تمد شهوة النجاح تلك الخطة بهالة منالفتنة والسحر . ويصبح الشعور بالغيرة من الصـــديقة المعشوقة قناعا يبرر البغض لعاشقها . والا فكيف نعال الشعور بالـكراهية لرجل لم تقع أنظارها عليه قط ؟ وهذه الـكراهية هى الستار المشروع لتبرير هـــذه الدســائس ، لأنه عذر أهون على النفس من الاقرار بالدافع الحقيقى وهو الغيرة من الصـديقة المحظوظة . فالغيرة معناها الاعتراف أولا وقبل كل شىء بتفوق هذه الصديقة عليها فى الجمال أو الرشاقة أو غير ذلك من

المحاسن . وفى الوقت نفسه تستخدم الأميرة الحاقدة اتباعها ومتملقيها لاضفاء السخرية والزراية على تلك الصديقة ، كى تقنع نفسها بأنها غير جديرة بذلك الحظ الأعمى !

وفى الوقت نفسه تحاول هذه المتآمرة الظهور بمظهر المشفقة على تلك الصديقة ؛ وانها لا تعمل الا على حمايتها من سوء المصير على يد ذلك الحبيب الذى ليس أهلا لها . وتزعم أيضا لنفسها ان هذه الصديقة عزيزة عليها جدا ، وهى لا تطيق أن تخسر صداقتها ، وما من شك ان انغماسها فى الحب سيجعل قلبها كله مشغولا بحبيبها ، فلا يبقى لها ركن مهما كان صغيرا فى هذا القلب . ثم ان الحب لايمكن أن يعيش بغير افضاء للصديقة ، وهى لا تطيق أن تسمع من صديقتها وصف سعادتها التى حرمت هى من مثلها !

والصداقات المخلصة الوحيدة بين النساء العاشقات هى التى أساسها اتفاقية ضمنية بين من يتكاشف أسرار عشقهن : « ساعدينى فى حبى اليوم ، أساعدك فى حبك غدا » . وهكذا تكون النساء يدا واحدة ، لأن الجميع فى هذه الحالة محظوظات ، وليست فيهن محرومة يأكل الحسد قلبها !

وبالطبع هناك حالات استثنائية خاصة ، هى الصداقة الحميمة بين ندرة من النساء بسبب نشأتهن منذ الطفولة معا ، وتعودهن طول حياتهن الافضاء بأسرارهن فيما بينهن ، بحيث تكون بينهن اخوة خالية من الغيرة . علما بأن الغيرة فيما بين الأخوات العاديات مألوفة كما هو مشاهد . ولكن هذه الحالات كما قلنا استثناء خارق للعادة ، ولا يقاس عليها .

وافضاءات العشق العاطفى الحقيقى الجاد الجارف لا تجد قبولا وترحيبا الا فيما بين الطلبة الذين يحبون الحب من حيث هو عاطفة فى حد ذاته ، قبل أن يحبوا الفتيات انفسهن ، وفيما بين الفتيات الحديثات السن اللواتى يأكلهن الفضول وحب الاستطلاع والتشوق الى ممارسة الحنان . ولعلهن مدفوعات أيضا بالفريزة . ففى اعتقادى شخصيا انه الى جوار التربية التى تبدأ لدى الفتاة فى الشهر الثامن أو العاشر من عمرهن توجد الفريزة أيضا . على شكل بذرة تنمو رويدا رويدا . وهذه الفريزة توحى للفتيات الصغيرات السن ان الحب هو موضوع حياتهن الأكبر ، وان الانشغال به ليس سابقا لأوانه فى أى وقت من الأوقات .

وكم شاهدنا من فتيات صغيرات فى الثالثة من عمرهن يتجهن الى حب التزين والفندرة فى أعين الفتيان .

* * *

والملاحظ ان حب العشق الجارف يبرد بالافضاء ، أما حب الاستحسان والاستلطاف أو الرغبة فيتقد به .

وفضلا عما يحف بالافضاء من المخاطر ، ينبغى أن ندرك أيضا بالصعاب .. فالعشق الجارف صعب تصويره والتعبير عنه بالكلام ، لأن لغة المقال أغلظ من أن تصف تنويعاته الناعمة ، بل المفرطة النعومة . وهذه النعومة نفسها بشتبه امرها على الصديق الذى يرقب احوال صديقه ، لما فيها من الارتباك والتداخل والتناقض . بل ان العاشق نفسه يجد صعوبة فى استجلاء ما يشعر به ، بل يعصف به من مشاعر متقلبة متناقضة المظاهر . فالعاشق ابعد الناس عن الموضوعية والعدل ، فعاطفته تجنح به الى الشك والى الظلم لحبيبته ، والى عدم تأويل

ظروفها تأويلا صحيحا. وكلما تقلبت مشاعره وهواجسه اندفع يفضي بها الى صديقه الحميم افضاء مرتبكا متناقضا أيضا .

ولعل أحكم خطة يختطها العاشق أن يجعل نفسه موضع افضائه . وليجلس فى هدأة الليل ليسجل – ولو باسم مستعار – كل تفصيلات الحوار الذى دار فى ذلك اليوم أو ذلك المساء بينه وبين حبيبته . وليسجل على الورق ما أثار شكوكه واستغلق عليه وسبب له الاضطراب. ثم ليقرأ بعد ثمانية أيام ، مع ما كتبه فى الليالى التالية ، وسيجد ان الأمور تبدو له فى ضوء جديد ، وعندئذ يتمكن من أن ينصح لنفسه ويشير عليها بأحكم المشورة .

* * *

والمألوف فى مجتمعات الرجال ، حينما يتعدد الأصدقاء ، ألا تجرى فيما بينهم مكاشفات أو افضاءات تتعلق بالعشق الصادق الجارف – بل يخوضون باستمتاع فى افضاءات تتعلق بغرامياتهم الجسدية الخالصة ، ويتفاخر كل منهم بمغامراته فى هذا السبيل. أما المحب الصادق فلا يمكن أن يتخذ من حبه ألعوبة أو ملهاة أو موضوع زهو ، لأنه عبد لحبه ، وليس سيدا يتلهى بألعوبة ، وحبيبته ملكته أو معبودته ، وليست ملهاته .

العاشق الحقيقي مسكين . وأسير لا يملك زمام نفسه .

أما اللاهون بالغراميات فأهل قصف ومجون ، يملكون زمام أنفسهم ، والنساء فى حياتهم دمى وألاعيب .

الفصل الثاني عشر :

الغـــــيرة

ان المرء اذا أحب صار كل موضوع يتراءى لناظريه ، أو تستعيده ذاكرته ، يستثير فيه التفكير فى حبيبه ، ويغدو مناسبة لاضافة لون جـــديد من الـكمال الى محاسنه ، ويتخذه ذريعة كى يزيد من حبه له ، وكأنه فى حاله هذا كالديدبان الساهر ، بيد انه لا يسهر ليرقب الأعداء ، بل ليتصيد زينة جديدة للحبيب ، أو ليذكى شعلة الحب فى صدره ، أو ليجعل نفسه أرق وأحب فى نظر هذا المحبوب .

وهكذا ينشط الخيال، وكل خطوة من خطوات هذا الخيال تزيد من مفاعم الحب ولذائذه . فلا غرابة أن يكون هذا الأسلوب فى الحياة شديد الهيمنة على النفس والفكر ، فلا يدع للمرء العاشق سبيلا الى الانشغال بأى شيء آخر .

ومنذ اللحظة التى تولد فيهـا الغيرة ، يظـل تربص العاشق كما هو ، ولـكن لفرض آخر ، فان كل زهرة يضيفها الى تاج محبوبته ـــ التى يظن انها تحب سواه ـــ لا تثير فيه متعة سماوية ، بل تكون بمثابة خنجر يغوص فى فؤاده ، وكأن صوتا يصيح به :

ـــ هذا الحسن الفائق ، وهذه اللذة وهذه الفتنة انما هى نصيب منافسك !

وتلك لعمرى من حماقات الحب وأوهامه ، لان ما قد تراه من محاسنها وفتنتها ، قد لايكون له وجود فى نظر هذا المنافس له ! ومن شأن العاشق أن يبالغ خياله فى سعادة المنافس له ، ويتصور فى ذلك الباب أفانين تزيد ناره استعارا وعذابه اشتعالا .

ولعل خير دواء الغيرة فى هذه الحالة أن ترقب عن كثب ذلك المنافس ، وكثيرا ما يتضح لك انه يغالب النعاس فى الصالون الذى توجد به معبودتك التى يكفى أن ترى قبعة فى الشارع شبيهة بقبعتها عن بعد ، كى يأخذ قلبك فى الخفقان .

فان أردت أن توقظه وتجعله فى حالة صحو ، فعليك باظهار غيرتك منه ، وعندئذ يبدأ فى ادراك قيمة هذه المرأة التى تفضله عليك ، ويكون مدينا لك بالشروع فى حبها !..

وليست هناك خطة فى معاملة الخصم أو المنافس لك فى الحب أفضل من المزاح معه بلا اكتراث ، أوتخويفه ، وليس بين هذين النقيضين حد أوسط .

ان الغيرة أسوأ أنواع الشرور والأمراض . وقد يكون التلهى عنها بتعريض الحياة للمخاطر ، ذلك ان خواطرنا فى مواجهة الأخطار لا تكون سجينة نطاق ضيق ، هو التفكر فى سعادة المنافس المحظوظ ، ولا مسممة بتخيل ما لاسند له من الواقع . وقد يتصور المرء عندئذ وهو يقتل الفريسة لا يطاردها فى الصيد العنيف ، أنه يطارد ذلك المنافس ويظفر به ويسدد اليه الطعنة النجلاء ، أو الرصاصة القاضية !

وطبقا للقاعدة العسكرية التى تنهانا عن تزويد العدو بأسلحة أو قوات تحارب معه ، يجب عليك أن تخفى

حبك عن منافسك وأن تقول له متظاهرا بالكبرياء أو الغرور :

ـ لست أدرى ياسيدى ماذا يدفع الناس الى ادعاء ان فلانة تحبنى ، أو على علاقة بى ، بل الأدهى من هذا أن يزعموا انى أحبها . وأنا مستعد ـ ان كانت لك رغبة فيها ـ أن أنزل لك عنها عن طيب خاطر ، لو لم يكن هذا التصرف يبدو سخيفا ومضحكا فى عيون الناس . ولكن لك بعد ستة أشهر مثلا أن تأخذها كما تشاء . أما اليوم فالكرامة ـ التى لا أدرى لماذا يزجون بها فى هذه الأمور ـ ترغمنى على أن أقول لك ، للأسف الشديد ، اننى ما لم تتذرع بالصبر وتنتظر حلول دورك الطبيعى ، مضطر أن أبارزك !

وقد لايكون منافسك رجلا ملتهب العواطف متقد الانفعالات، ولعله ان يكون رجلا شديد الحرص والحذر، وعندئذ متى تأكد من عزمك وقرارك بادر بالتخلى لك عن المرأة المشار اليها ، بمجرد أن يجد لنفسه ذريعة تصون كرامته . ولذا يجب أن تسوق اليه اعلانك ـ أو انذارك ـ الآنف بلهجة تفيض مرحا ، وأن تحوط هذا الاعلان بالسرية التامة ، بحيث لايسمعكما ثالث ، ولا تبوح به بعد ذلك لأحد .

وآلم ما فى مشاعر الغيرة الحادة الوجيعة ان الغرور او الاعتزاز بالنفس لايمكن أن يساعد على احتمالها . أما بالطريقة التى حدثتك عنها فأمام الغرور الشخصى فسحة كبيرة يتنفس فيها . ففى وسعك فى هذه الحالة أن تعد نفسك شجاعا ، بعد أن كنت ترى نفسك ضئيلا أو موضع موازنة بينك وبين هذا المنافس فى ميدان الحب .

أما ان كان العاشق الغيور ليس من الطراز الذى يحب أن يحمل الأمور على المحمل المأسوى البالغ الجد، فخير ما يصنعه أن يرحل ليقيم فى مكان يبعد عن محل اقامة محبوبته بمقدار اربعين أو خمسين ميلا ، وهناك يحوز راقصة أو فتاة من هذا النوع السهل ، لها من المفاتن الجسدية ما لعله حفز غرائزك أو استوقفها . ولكن احرص على أن يشيع عنك هذا الخبر ، كى يصل الى منافسك ، وعندئذ يعتقد انك سلوت هواك الحقيقى، ان كان محدود الذكاء عامى النفس .

❋ ❋ ❋

وكثيرا ما تكون الخطة المثلى أن تنتظر من غير عبوس أن تبلى جده هذا المنافس لدى حبيبتك ، بما يقترفه من حماقات . فالمرأة الذكية لا تحب غالبا لأمد طويل رجلا عامى النفس ، اللهم الا اذا كان حبها هذا فى باكورة صباها ، ويتعلق قلبى مستحكم .

أما اذا حدثت الغيرة بعد المخالطة مع المحبوبة ، فخير ما تصنعه أن تتظاهر بعدم المبالاة ، لأن كثيرا من النساء يزددن تعلقا بالرجل الذى يغار منه الحبيب أن أساء اليهن أو أهانهن هذا الحبيب بسبب الغيرة . وبذلك ينقلب الهزل جدا .

وقد دخلت فى هذه التفصيلات الكثيرة لأن المرء فى أوقات الغيرة يطيش صوابه غالبا ، وعندئذ قد تنفعه النصائح التى كتبها القدماء . وأهم ما فيها جميعا اصطناع الهدوء ، والاقتداء بالفلاسفة فى الصبر وتهوين الأمور .

ولما كان لا سلطان لأحد عليك الا بانتزاع شىء منك ، أو اطماعك فى أمور تجعل عواطفك لها قيمة ، فانك متى

أوحيت الى نفسك عدم المبالاة ، تحطمت أسلحة خصومك أو سقطت من أيديهم .

وان لم يكن لديك أيها المتوجع من الغيرة عمل تشغل به نفسك ، وأردت التلهى بما يسرى عنك أو يعزيك ، طالع « عطيل » ، فتلك المطالعة تجعلك تشك فى أشد المظاهر اقناعا . وستقع عندئذ عيناك على عبارات من قبيل هذه الأبيات :

« تفاهات فى مثل خفة الهواء

« تبدو للغيور تأكيدات حاسمة قوية

« وكأنها أدلة مستمدة من الكتاب المقدس »

(عطيل ـ الفصل الثالث)

وقد جربت ان منظر البحر الجميل المترامى يبعث فى النفس العزاء والسلوان :

« أن الصباح الذى أشرق هادئا رائقا صافيا ساطعا كان له أثر جميل سار على منظر الجبل المترامى الذى كان يلوح من القلعة اذا مانظر المرء صوب البر ، والمحيط الهائل كان يجيش بألوف الأمواج الفضية ، متراميا على مدى البصر من الناحية الأخرى ، فى جلال مهيب ، حتى آخر حدود الأفق . وان القلب البشرى مهما اضطربت أحواله ليتعاطف مع هذه المشاهد الهادئة الجليلة الممتدة ، وتلهمه مهابتها المطمئنة أعمال الشرف والكرامة والفضيلة » .

(من كتاب عروس لامرمور)

وقد وجدت فى مذكرات سالفياتى بتاريخ ٢٠ يوليو عام ١٨١٨ الفقرة التالية :

« قضيت بالأمس ثلاث ساعات مع المرأة التى أحبها ،

ومع خصم أرادت أن توحى الى انه موضع حظوة ومعاملة حسنة . ولا شك فى انه كانت هناك لحظات مرارة وأنا أرى عينيها الجميلتين مركزتين عليه . ولما خرجت من عندها شعرت باحاسيس عنيفه من أشأم ما يمكن ، لأنها تكاد تقضى على كل أمل. ولكن ما أكثر ماجرى ببالى من الأفكار اليقظة الجديدة ! وماكان أشد نشاط تفكيرى واستدلالاتى ! وبرغم ما حظى به منافسى من سعادة ظاهرة ، تشبثت بحبى ورأيته يرتفع فوق كل هذه العوارض الظاهرية ، ورأيت سعادته الوقتية تتضاءل أمام حبى . وقلت فى نفسى :

ـ ان خديه ليكفهران جبنا أمام أتفه تضحياتى التى يمليها حبى على . بل اننى لشدة حبى مستعد أن ألعب لعبة الحظ أو القرعة ، فألتقط ـ مثلا ـ من قبعتى احدى ورقتين مطويتين متماثلتين ، فى احداهما « انها تحبنى » وفى الأخرى « سأنتحر فورا » ! فهل تراه يجسر على مثل هذا الرهان فى سبيل حبها ؟ ان قوة ثقتى بحبى لها تمنعنى من مقاطعتها ، وتحملنى على التذرع بالصبر ، ودوام زيارتها ، والاشتراك بكل لطف ودماثة فى الأحاديث التى تجرى فى صالونها ..

« ولو كان أحد حدثنى بشىء من هذا منذ عامين لسخرت منه سخرا شديدا » .

* * *

وقد طالعت فى رحلات لويس وكلارك عند منابع المسورى فى عام ١٨٠٦ ، فى صفحة ٢١٥ العبارات التالية :

« عشائر الريكارا فقراء ، ولكنهم طيبون وكرماء . وقد عشنا فترة طويلة فى ثلاث من قراهم . ونساؤهم أجمل من نساء سائر العشائر التى التقينا بها . وهن

أيضـ شديدات الميل الى عدم تعذيب عشاقهن. ووجدنا هناك دليلا جديدا على تلك الحقيقة القديمة القائلة انه يكفى أن يطوف المرء بالعالم كى يرى أن كل شيء متغير. فلدى هذه العشائر اساءة عظمى أن تمنح المراه وصالها لعاشقها بدون رضا وموافقة زوجها أو اخيها . الا ان الأزواج والأخوة هناك يسرهم جدا أن يجدوا فرصة اسداء هـــذه المجاملات الهينة (!) جدا الى جيرانهم واصدقائهم .

« وكان بين أفراد حاشيتنا زنجى ، أثار فضولا عظيما لدى هؤلاء الناس الذين لم يسبق لهم أن رأوا بشرا بهذا اللون الفاحم . وسرعان ما أمسى أثيرا لدى الجنس اللطيف. وبدلا من اتقاد غيرة الأزواج، رايناهم مسرورين سعداء لحضوره الى بيوتهم للاجتـــمـــاع بالزوجات . واطرف ما فى الموضوع ان هذه الأكواخ المبنية من البوص يرى من بخارجها كل ما يدور فى داخلها ! » .

* * *

اما عن المرأة المشكوك فى وفائها فانها تفارقك لأنها شديدة الثقة بحبك لها . ذلك انك قتلت الخوف ، ولم يعد هناك محل لتولد شكوك الحب الصغيرة . وعليك فى هذه الحالة أن تثير قلقها من جهة حبك لها ، واياك على الخصوص من حماقة الشجار . فانك لطول المدة التى عشتها بقربها لابد قد اكتشفت من هى المرأة التى تغار منها أكثر من غيرها ، وتخاف من سطوة جمالها ، من بين نساء المدينة أو المجتمع . واذهب الى تلك المرأة بالذات ، وتودد اليها ، وطارحها الهوى ، وتغزل فى محاسنها . ولكن اياك أن تجعل هذا السلوك علنيا ، بل تعمد اخفاءه عنها ، واعتمد على أعين السوء وألسنة السوء أن تتولى نقل اخبارك الى صاحبتك . ولا تظن

أن هذا عسير عليك ، فان بعدك عن صاحبتك عدة أشهر يسهل عليك التودد الى غيرها ، وأفض الكثير من وقتك مع الخلان فى القصف واحتساء الشمبانيا .

وعليك ــ كى تحسن الحكم على حب صاحبتك ــ ان تتذكر الأمور الآتية :

١ ــ انه كلما دخل فى اســـاس الحب عنصر اللذة البدنية ، كان هذا الحب أشد تعرضا للنزعزع وعدم الثبات ، والخيانة . وينطبق هذا بصفة خاصـة على العلاقات الغرامية التى أسرع الى تبلرها اندفاع حرارة الشباب الباكر ، فى سن السادسة عشرة .

٢ ــ ان الحب الذى يكون بين متحابين ، لا يظل دائما هو هو بعينه . فأنا أعرف ان ألفبيرى ــ مثلا ــ كان يحب سيدة انجليزية كبيرة المقام ، وهى تبادله الحب. ولكنها فى الوقت نفسه كانت تمارس الجنس مع خادمها! فالحب العاطفى له مراحله أو أوجهه المختلفة ، التى يكون فيها حب أحد الطرفين أشد من حب الطرف الآخر له، ثم قد تنقلب هذه الأوضـاع فى مرحـلة تالية ، وهكذا دواليك . وكثيرا ما يحدث أن يكون حب أحد الطرفين حب عاطفة جارفة ، فى حين يكون حب الطرف الآخر للطرف الأول ليس حب عاطفة ، بل حب إستحسان أو حب رغبة . والأغلب ان المرأة هى الأشد انغماسا فى حبها من الرجل واندفاعا فيه . وأيا كان نوع الحب الذى يشعر به أحد العاشقين ، فانه متى أحس الغيرة طالب الطرف الآخر بكل مقتضـيات الحب العاطفى الجارف ، وصور له الغرور أو الكبرياء أن ما يحسه هو هذا الحب فعلا ، وصارت حاجاته عندئذ هى بعينها حاجات القلب الرقيق الحساس .

وينبغى ان نذكر هنا ان من حبه حب رغبة أو استحسان أو استلطاف ما من شيء يضايقه مثل حب الطرف الآخر له فى مقابل ذلك حبا عاطفيا جارفا ، لأنه يطلب اللهو ، ولا يطيق من الطرف الآخر أن يكون جادا فى حبه أعظم الجد ، بحيث يطالبه بالوفاء الأبدى .

وكثيرا ما يحدث آن يتودد رجل ذكى الفؤاد الىامرأة حسناء ، فيجعلها تفكر فى الحب وتهتم بهذه العاطفة وتتعطشاليها ، ويرق لها قلبها ويتفتح فىلهفة ، وتحسن استقبال ذلك الرجل وتأنس الى حديثه ، فيحسب انها تحبه ، وتداعبه الآمال ، وهى فى الحقيقة لا تحبه ، بل تستحسن حديثه . واذا بها ذات يوم تلتقى بالرجلالذى يجعلها تحس ما أحس الرجل الأول وصفه لها من المشاعر !

ولست أعرف ما هى آثار غيرة الرجل على قلب المرأة التى يحبها . ولكنى أحسب ان العاشق المضجر الذى لا تستظرفه حبيبته لابد أن يلهم هذه الحبيبة بغيرته عليها التقزز والنفور ، الى حد البغض الشديد له ، ولا سيما اذا كان من يغار منه أظرف وأوسم منه .

وجدير بالذكر ان الغيرة يمكن أن تروق النساء ذوات الكبرياء ، من حيث أن الغيرة وسيلة جديدة لاثبات نفوذهن على الرجل ...

وكذلك يمكن أن تكون الغيرة أسلوبا جديدا للبرهنة على الحب ، الا انها أيضا يمكن أن تصدم حياء المرأة المفرطة الرقة والحساسية .

ولئن راقت الغيرة المرأة ، فلأنها دليل على شجاعة الغيور واقدامه وحرارة دمائه، ويحسن بالمرأة فى هذه

الحالة ألا تقول « نعم » للرجل الذى يحبها ويغار عليها، كى تستبقى لديه صورتها مقدسة لا تنال . ذلك ان هذه الصورة تنزل من السماء الى الأرض ، متى قالت المرأة المعبودة نعم ، وتحولت الى لحم ودم كسائر الاناث.

وعلى المرأة الحصيفة أيضا الا تقر بالخيانة للحبيب الغيور ، مهما كانت القرائن ضدها ، حتى لا تفوت عليه مغالطة نفسه فى عفتها ، لأنها ان اعترفت بالخيانة المادية قتلت مكانتها فى نفسه ، وربما قتلته أيضا. فالعاشق كثيرا ما يعيش على الوهم !

وهناك قصة مشهورة تحكى عن المدموازيل دى سومرى، التى ضبطها عاشقها متلبسة بذات الفعل ، فاذا بها تنكر بكل اصرار . ولما ثار عاشقها وكذبها بناء على ما رأته عيناه ، صاحت به بكل ثبات :

— آه ! هأنذى أرى انك لم تعد تحبنى حقا ، لأنك تصدق ما تراه بعينيك أكثر مما تصدق ما أقوله لك .

* * *

أما عن الغيرة لدى النساء ، فهن متخوفات قليلات الثقة ، وفى الوقت نفسه يخاطرن أكثر مما نخاطر نحن بكثير ، وتضحياتهن فى سبيل الحب أكثر من تضحياتنا بكثير أيضا ، ووسائل التلهية والتسلية لديهن أقل مما لدينا — نحن الرجال — كما ان وسائلهن أقل منا للتحقق من أفعال وتصرفات عشاقهن .

وتشعر المرأة انها تحط من قدرها بغيرتها ، فتبدو وكأنها تجرى وراء الرجل ، وتظن انها صارت أضحوكة عاشقها ، وانه يسخر على الخصوص من أرق مشاعرها، فترى لزاما عليها أن تثأر لنفسها بالجنوح الى القسوة ،

بيد انها لا تستطيع ان تقتل غريمتها بطريقة مشروعة تضاهى المبارزة بين الرجال المتنافسين فى الحب .

فلابد اذن أن تكون الغيرة لدى النساء داء أو بلاء أفدح من الغيرة التى تصيب الرجال . فهى أقصى مايمكن أن يتحمله القلب البشرى من براكين الغضب العاجز ، ونيران احتقار الذات من غير أن يتحطم .

واحتقار الذات على الخصوص من أهم أسباب الاقدام على الانتحار ، فالمنتحرة عادة تريد من وراء قتل نفسها تعويض ما أهدر من كرامتها أو شرفها .

ولست أعرف دواء لمثل هذا الداء العضال القاسى الا موت من تسبب فيه ، أو من يعانى منه . ويستطيع من يشاء أن يطلع على نموذج للغيرة الفرنسية فى قصة مدام دى لابوميراى ، فى كتاب « جاك القدرى » .

ويقول «لاروشفوكو» : « ان الانسان ليشعر بالخزى من الاعتراف بأنه غيور » .

والنساء المسكينات لا يجسرن حتى على الاعتراف بأنهن جربن هذا العذاب القاسى ، لأن هذا الاعتراف يجعلهن هزاة ويعرضهن للسخرية . وطبيعى ان مثل هذا البلاء لا يندمل جرحه تمام الاندمال أبدا .

ولو كان فى الامكان أن يتعرض العقل البارد لنيران الخيال بشىء ولو ضئيل من مظاهر النجاح ، لقلت للنساء التعسات المسكينات اللواتى تعذبهن الحيرة :

ـ هناك بون شاسع بين الخيانة لدى الرجال ولديكن . فالخيانة لديكن تعد فعلا مباشرا من بعض جوانبها ، ورمزا أو علامة من جانبها الآخر . ونتيجة لتربية الرجال العسكرية فى الكلية الحربية فهى ليست رمزا أو علامة

على شيء لدى الرجل . أما بفضل الحياء أو الاحتشام فى تربيتكن فالاحتشام أوضح علامة ممكنة وحاسمة على وفاء المرأة للرجل .. والعادات السيئة وحدها هى التى تجعل الخيانة ضرورية للرجل . وبسبب القدوة التى يقدمها التلاميذ الكبار للتلاميذ الصغار فى المدارس الثانوية وفى الكلية الحربية ، يرتبط فى أذهانهم مقدار رجولتهم بعدد نجاحاتهم فى الممارسة الجنسية ، فى حين تعمل تربيتكن فى الاتجاه المضاد تماما .

أما عن قيمة أى فعل من حيث هو رمز أو علامة ، فأضرب مثلا لذلك حركات الغضب ، كأن أقلب مائدة على قدم جار لى ، أو أن أصفعه على وجهه .

والفرق بين الخيانة عند الرجال وعند النساء فرق واقعى وحقيقى جدا . وآية ذلك ان المرأة التى تحب حبا جارفا يمكن أن تغفر الخيانة ، ولكن ذلك مستحيل على الرجل الذى يحب حبا عاطفيا حقيقيا .

وانه لمن علامات الفرق الكبير بين الحب العاطفى وحب الاستحسان أو الرغبة ، ان الخيانة تقتل الأول ، وتضاعف الآخر .

والنساء ذوات الكبرياء يخفين غيرتهن صونا لكبريائهن ، ويقضين أمسيات طويلة كئيبة موحشة صامتة مع الرجل الذى يحببنه ويخشين فقده ويشعرن انه يفضل عليهن سواهن . وهذا بلا شك من أشد ألوان العذاب . ويحتاج علاج هذا الشعور الأليم الى فطنة خاصة لدى الرجل كى يبدده باقباله وحرارة تودده .

الفصل الثالث عشر :

عـــــــزة النفـــس

الاعتداد بالنفس ضرب من ضروب الـكبرياء ، يورث العناد ، بحيث لا أرضى ان يتفوق خصمى أو منافسى على ، واصر على أن أجعل هذا الخصم نفسه يشهد بتفوقى عليه ، بما اتركه فى نفسـه من الأثر . وهذا هو السبب فى ان هذا النوع من الشعور يدفع المرء فى كثير من الأحيان الى تجاوز المدى المعقول .

وهذا الاعتداد بالنفس داء يصاب به الرجال دون النساء ، وهو كثير الانتشار فى الدول الملكية ، ونادرا ما يشاهد فى الأقطار التى تسودها عادة تقدير الأفعال طبقا لدرجة نفعها ، كما هو الحال فى جمهورية كالولايات المتحدة مثلا .

ان كل رجل ــ ولا سيما الرجل الفرنسى ــ بكره جدا أن تظن به الغفلة ، وان كانت خفـة حالة الملـكية القديمة فى فرنسا قد حالت دون انتشار هذا النوع من التصرفات الاهم الا فى علاقات حب الاستلطاف أوالرغبة . والمشاهد ان هذا الشعور لا يستشرى الا فى الملـكيات التى يسودها المزاج القاتم بسـبب حرارة الجو ، كما هو الحال فى البرتغال وبيدمونت .

وأهل الريف فى فرنسا يهزأون مما جرى عليه عرف

المجتمع الباريسي من احترام واعتبار للرجل الغزل الذى يطارد النساء بمطارحاته وغواياته ، ولذا تجد أهل الريف رابضين بالمرصاد طول عمرهم لمراقبة تصرفات الرجل الذى يقدم على أى تجاوز ، كأنهم ديدبانات تحرس القلعة من المهاجمين أو المتسللين .

وهذا هو السبب فى شدة حساسية أهل الريف من ناحية ما يمس الاعتداد بالنفس حتى انهم يصلون فى هذا الى تطرف يوجب السخرية . وهذا العامل يأتى بعد عامل الحسد فى جعل الاقامة بالمدن الصغيرة أمرا لا يطاق . وهذا ما يجب الرد به على كل من يغالى فى امتداح جمال المناظر فى احدى هذه المدن . فالمشاعر الكريمة والنبيلة مشلولة هناك بسبب أحط ثمرات المدنية ، الا وهو سوء الظن والتطفل على تصرفات الناس . وأدهى ما فى أحوال هؤلاء البورجوازيين انه لا حديث لهم الا عن فساد المدن الكبرى !

ومن المفارقات ان هذا السلوك البوليسى ، الذى يجعل كل شخص هناك يراقب الشخص الآخر ، بدافع الحسد ، ولا سيما فيما يتعلق بالحب ، ان الحب فى الأقاليم أقل مما يجب ، فى حين ان الانحلال الخلقى المتستر أكثر مما يجب . أما ايطاليا فأسعد حالا فى أقاليمها من فرنسا ، من هذه الناحية .

وهذا العناد لدى من تأخذه العزة بالكبرياء لا يمكن أن يكون له وجود فى حالة الحب العاطفى . ومن دأب المرأة أن تصاب بهذا الداء اذا ما استبدت بها الغيرة .

وهدف الغيرة افناء الموضوع الذى يخشاه الشخص الغيور . أما الرجل المعتد بنفسه فلا يريد قتل خصمه بمقدار ما يريد له أن يعيش ليكون شاهدا على انتصاره .

وهو فى الوقت نفسه لايريد أن يترك خصمه الميدان خالصا له ، لأن هذا الخصم ربماعزى نفسه فى سريرته بأنه لو استمر فى المنافسة لـكتب لهالانتصار ، بل يريد أن ينتهى الأمر بهزيمة الخصم هزيمة حاسمة .

وليست المرأة فى هذه الحالة هى الهدف الأساسى ، بل الهدف الأساسى هو الانتصار على الخصم فى حد ذاته .

وهذا ما يشاهد بوضوح فى حالة غراميات فتيـات الأوبرا أو الممثلات أو الراقصات عموما ، فمتى اختفت المنافسة من الميدان ، اختفى الحب الذى كانت الفتاة تظن انه ملك عليها زمامها بحيث توشك أن تلقى نفسها بسببه من النافذة .

فهذا النوع من الحب الذى يذكيه العناد والاعتداد بالنفس أو الكيمياء يمكن أن ينقضى أمره فى لحظة واحدة ... على عكس الحب العاطفى الحقيقى . اذ يكفى لذلك أن يعلن المنافس بخطوة لايمكن الرجوع فيها من جانبه انه انسحب من الميدان وكف عن المنافسة .. ومع هذا أتردد فى التسليم بتلك القاعدة . وتحضرنى حكاية فى هذا الشأن أسردها فيما يلى ، وأترك للقارىء الحكم عليها :

دونا ديانا شـابة فى الثالثة والعشرين من عمرها ، ابنة عائلة من أغنى عائلات اشبيلية البورجوازية وأكثرها كبرياء . ولاشك فى انها جميلة جمالا ملحوظا ، ويصفونها بالذكاء المفرط ، وبكبرياء أشد افراطا . وكانت تحب حبا عاطفيا جارفا — فى الظاهر على الأقل — ضابطا شابا لا ترضاه أسرتها . ثم رحل هذا الضابط الى أمريكا ، وتبادل العاشقان الرسائل بلا انقطاع .

وذات يوم كثر فيه الضيوف والزوار لدى والدة دونا ديانا ، أعلن شاب أحمق وفاة ذلك الضابط الوسيم ، فاتجهت جميع الأنظار الى دونا ديانا ، فلم تزد على أن قالت بهدوء :

ـ خسارة ! انه لم يزل فى مقتبل العمر !..

وكنا قد قرأنا فى تلك الجلسة مسرحية لكاتب قديم تنتهى نهاية مأسوية ، الا ان البطلة تتلقى بهدوء ظاهرى موت حبيبها . ورأيت بعينى الأم وقد اكفهر وجهها برغم كراهيتها للشاب ، وبرغم كبريائها . أما الأب فخرج كى يخفى علائم السرور التى ظهرت على وجهه . وكان الشخص الوحيد الذى واصل المحادثة بكل هدوء كأن شيئا لم يحدث هو دونا ديانا برغم كل الأنظار المركزة عليها ! ولم يظهر على تصرفاتها أى تغير .

وبعد سنتين من ذلك التاريخ تودد اليها شاب جميل جدا ولاحقها بالمغازلة ، ولنفس الأسباب ، وبدعوى عدم تكافؤ المقامات ، رفض أبواها ذلك الزواج بكل عنف ، اما هى فأعلنت انه سيتم ! وهكذا نشأ بين الفتاة وأبيها عناد الكبرياء .

وما كان من أبيها الا أن حرم على ذلك الشاب دخول بيته ، ومنع دونا ديانا من الذهاب الى الريف للنزهة ، بل ومنعها من الذهاب الى الكنيسة . وحرمت الفتاة باختصار من كل الوسائل الممكنة للالتقاء بحبيبها . ولكن هذا الشاب كان يتخفى ويتنكر كى يصل اليها ويلتقى بها سرا على فترات متباعدة .

وزادت دونا ديانا فى عنادها ، وتمادت فى اصرارها ، فرفضت أبدع وأثمن عروض الزواج من ذوى المقامات

العالية والثراء العريض والوسامة الظاهرة ، وكان من بينهم صاحب لقب نبيل رفيع القدر ومنصب مرموق فى بلاط فرديناند السابع .

وأخذت المدينة كلها تلغط ببطولة هذين الحبيبين الوفيين ،وتضرب بوفائهما المثل . وأخيرا اقترب موعد بلوغها سن الرشد ، فأفهمت أباها انها سوف تستغل عندئذ حقها فى التصرف فى أمر زواجها بنفسها .

واسقط فى يد الأسرة وخافت الفضيحة ، واضطرت للدخول فى مفاوضات الزواج . وما كاد نصف هذه الترتيبات يتم فى جلسة اجتماع رسمى للأسرتين ، بعد ست سنوات من الوفاء النادر، حتىأعلن الشاب رفضه الزواج منها !

وبعد ربع ساعة كان قد اختفى ، أما هى فتعزت عنه تمام العزاء . فهلكانت تحبه علىسبيل العناد فحسب؟ أم انها فى الواقع متألمة ولكن كبرياءها لا تسمح لها باظهار حزنها وتفجعها أمام أنظار المجتمع الشاخصة اليها ؟

* * *

وقد يقال ان الحب العاطفيكثيرا ما يعجز عنالوصول الى السعادة الا اذا تولد عنه عناد مصدره الاعتداد بالنفس ، وعندئذ يحصل فى الظاهر على كل ما يصبو اليه ، أو يخشى عند الفشل التصريح بالشكوى خوفا من السخرية أو الشماتة . واذا تولدت الغيرة فى هذه الحالة ، أو تولد الشك ، ادى ذلك الى أوخم العواقب واقسى المشاعر .

ويذكرالناس الى اليوم ماحدث فى عام ١٨١٩ باحدى

المدن الكبرى ، اذ أصيب رجل رقيق الحاشية دمث الأخلاق بذلك البلاء ، فأقدم على قتل حبيبته التى لم تكن تحبه الا نكاية فى أختها ، فصحبها ذات مساء فى نزهة بقارب صنعه بنفسه ، ولما وصلا بالقارب الى عرض البحر حرك لولبا ، فانشق جوف القارب ، واختفى بهما فى أعماق اليم الى الأبد .

وقد رأيت رجلا فى الستين من عمره يندفع فى التدله بفتاة من أطيش ممثلات المسرح الانجليزى ، هى « مس كورنل » ، ويغار عليها غيرة شديدة ، وينفق عليها بسفاهة لمجرد ارضاء غروره والتفوق على منافسه عليها .

ومثل هذا العناد أو حب النكاية بالمنافسين قبل كل شيء كثير الحدوث فى حب الميل أو الرغبة أو الاستلطاف . وهذا هو المحك الذى يميز بين الحب العاطفى وحب الميل .

ومن القواعد المألوفة فى كتائب الجيش التى يوصون بها الضباط الجدد : اذا حلت الكتيبة فى بلد وجاء نصيبك فى الاقامة بدار عائلة بها فتاتان ، وأردت أن تحبك احداهما بالذات ، فعليك بالتودد الى أختها !

ومن المعروف عن معظم النساء الأسبانيات الشابات ، انك اذا أردت أن تحبك الواحدة منهن ، فعليك أن تعلن بسذاجة انك لا تشعر فى قلبك بأى ميل الى هذه السيدة التى تتردد على دارها ، فانها عندئذ تعد هذا تحديا تقابله بعناد واصرار على أن تحبها ! وقد أكد لى هذا الجنرال لاسال الذى اختلط بالمجتمع الأسبانى كثيرا .

* * *

ويقال ان أزواجا كثيرين يضمنون استمرار حب

زوجاتهم لهم سنوات طويلة ، باثارة غيرتهن وعنادهن ، باتخاذ عشيقة صغيرة بعد الزواج بشهرين مثلا ، فان ذلك يجعل الزوجة مشغولة البال طول الوقت باسترداد هذا الزوج واستبقائه واسترضائه .

ويذكر الناس فى عهد لويس الخامس عشر أن سيدة عظيمة هى مدام دى شوازيل كانت تعبد زوجها لا لشىء الا لأنه كان يبدى اهتماما كبيرا بأختها الدوقة دى جرامون!

والعشيقة المهجورة يكفى أن تبدى للرجل تفضيلها لآخر عليه حتى تسلبه نعمة الراحة والنوم ، وتوقد فى قلبه جذوة حبها من جديد ، اعتداد بنفسه وخوفا من الهزيمة والشماتة .

والمشاهد أن شجاعة الايطالى تبدو فى اندفاع غضبه ، وشجاعة الألمانى أشبه بلهجة سكر ، وشجاعة الأسبانى تثير كبرياءه .

والاعتداد بالنفس هو السبب فى التنافس بين رجال الكتيبة الواحدة ، او بين الكتائب المختلفة فى الجيش الواحد . وهذا الشعور نفسه هو السر فى كثير جدا من الوان الشجاعة والتجلد فى أصعب المواقف واشدها خطورة .

ويكفى أن يفتح المرء اى سجل للرحلات التى قام بها المرتادون الأوائل بين متوحشى أمريكا الشمالية ، كى نعرف ان المصير العادى لأسرى الحرب الذين يقعون فى أيدى هؤلاء المتوحشين ليس الشىء احياء فحسب ، بل يربطون قبل ذلك الى سارية بالقرب من محرقة مشتعلة، كى يستمر تعذيبهم ساعات طويلة بكل ما يتصوره العقل من فنون الوحشية ، وسط مظاهر القسوة الجهنمية

التى يتسابق فى ابدائها النساء والأطفال وهم فى أقصى حالات السرور . ولكن الكثيرين من هؤلاء الأسرى يبدون ـ بدافع الأنفة والاعتدادبالنفس ـ تجلدا عظيما، ويكبر عليهم أن يظهروا الضعف أو الخور أمام هذه الفظاعات التى لايتصورها عقل . فكأنما نشب صراع جبار بين الأسير الذى يعذبونه ، وبين جميع جلاديه ، أى الفريقين أصلب عودا ، وأقوى احتمالا ، واعتدادا بنفسه ...

وبسبب الأنفة والاعتداد بالنفس أيضا يرفض مقاتلون كثيرون استخدام التخدير قبل اجراء الجراحات الميدانية لهم ، ولا يمكن أن تصدر عنهم صرخة ، بل تأوه ، لأن ذلك يخدش شرفهم ، ويقلل من رجولتهم فى أنظار الناس .

الفصل الرابع عشر :

الشجار بسبب الحب

هناك نوعان من الشجار فى العلاقات الغرامية .

١ ـ شجار المحب .

٢ ـ شجار الفاتر أو النافر غير المحب .

والنوع الأول ناتج عن احتدام عاطفة الميل أو الرغبة فى الامتلاك والاستئثار .

أما النوع الآخر فناتج عن رغبة مضادة لهذا تماما ، هى الرغبة فى الابتعاد أو التخلص .

ولإذا كان أحد الطرفين المتحابين متفوقا تفوقا مسرفا فى المزايا التى لها كل التقدير لدى كليهما ، فعلى الطرف الأقل مزية أن يقتل حبه ، لأن خوف الازدراء خليق أن يتدخل ان عاجلا أو آجلا لوقف التبلر الذى ينضج علاقة الحب .

وما من شىء أبغض الى الأغمار والهمل من الناس مثل التفوق الفكرى ، فذلك هو مصدر الحقد فى عالمنا الحاضر . ولئن لم نشهد بين الطرفين معارك حامية ، فلأنهما لا يعيشان معا ، وليس بينهما كثير احتكاك . أما فى حالة العلاقة الغرامية فالطرفان يعيشان معا ، أو فى حالة قرب شديد ، ولا سبيل أمام الأرقى فكريا أن يستر تفوقه بالمجاملات الاجتماعية المألوفة . وطبيعى فى

هذه الحالة أن ينشب بين الطرفين شجار متصل ، مثاره الشعور بالنقص والثأر له ، فهو شجار ليس مبعثه الحب ، وان كان بسبب الحب ...

أما شجار المحب ، الذى مبعثه فرط الحب ، فهو ذلك الشجار الناتج عن الشك الخفيف ، والقلق. وذلك ما عبرت عنه امرأة من أشد النساء فطنة بقولها :

« هناك دائما ظل من الشك يسعى المحب لتهدئته ، مما يترتب عليه ذلك الظمأ الملازم للحب العاطفى الجارف ... ولماكان الخوف فى هذه الحالة لا يفارق المحب أبدا ، لذا كانت ملذات الحب لا يمكن أن تتعرض للسأم » .

والمشاهد أن هذا « الشك الخفيف » وهذا الخوف المخامر يبدوان لدى ذوى الطباع الرديئة أو التربية السيئة فى صورة شجار . فاذا كان الطرف الآخر ليس مفرط الحساسية ، ولا مدللا مرفها ، كان خليقا أن يجد فى هذا الشجار العنيف مزيدا من الحيوية ، وبالتالى مزيدا من الارضاء . وهو خليق أن يرى فى ثورات غضب المحب العنيف ما يثير شفقته عليه ، لما يشعر به من جيشان ، لأنه فى الواقع ضحية فوران عاطفته وجموحها.

ولذا كان اللورد « مورتيمر » لا يتحسر على شىء تحسره على الشمعدانات التى كانت تقذفه بها عشيقته فى ثورات غيرتها وشكها . ولئن اغتفرت الكبرياء هذه الثورات ، وغدرتها ، فهى اذن خليقة أن تشن حربا ضروسا على الملل ، والملل كما هو معروف عدو السعادة والسعداء اللدود .

ولنطالع معا هذه الفقرات من كتاب سان سيمون :

«بعد نزوات كثيرة وقتية استقر قلب الدوقة دى بيرى،

وأغرمت تماما بالشاب « ريون » ، الابن الأصغر لبيت آيدى ، وهو ابن‌اخت مدام دى بيرى. ولم يكن ذا قامة فارعة أو شكل وسيم أو قريحة متقدة . بل كان فتى بدينا ، قصيرا ، متكور الخدين (أشدق) شاحبا ، تكثر فى صدغيه النتوءات التى‌تشبه الدمامل. وهو ذو أسنان جميلة ، ولم يكن يخطر بباله أن يلهم امرأة عاطفة لم تلبث أن صارت هوى جامحا ،استمر بلا توقف ، وان لم يمنع النزوات الجانبية. وهو فقير فوق هذا كله ، ومن أقارب وأبناء الاقليم الذى أتت منه ماشـطة الدوقة دى بيرى. وقد أستقدمته قريبته الماشطة ، وهو يومئذ ملازم فى‌كتيبة للفرسان، عسى‌أن يشق لنفسه مستقبلا. وما أن وصل حتى افتتنت به الدوقة وصـار سيـد اللـكسمبور .

« وكان هـذا الشاب حفيد أخت المسيو دى لوزان الذى كان يضحك فى سره من هذه العلاقة ، ويرى كأنه ولد من جديد فى هذا الشاب الذى جدد عهد مغامراته وصار يوجهه ويصدر اليه التعليمات . وكان ريون دمثا مهذبا بطبعه شديد الاحترام لخال أمه ، ولذا كان يصغى جيدا لهذه النصائح ، بيد انه لم يلبث أن شعر بقوة سحره وسلطانه على هذه الأميرة النزقة ، فحرص على أن يكون محبوبا من الجميع ، لطيفا معهم ، أما الدوقة نفسها فحرص على أن يعاملها بدلال شديد ، على نحو ما كان خال أمه يعامل فى شبابه الأميرة أخت الملك أسوأ معاملة . وسرعان ما أغرقته فى أفخر الدانتـــلات ، والملابس ، والحلى . وكان يحلو له أن يثير غيرة الأميرة، ويطيل الغياب عنها ، وأن يبدو غيورا عليها أحيانا الى

حد الغضب والنقمــة ، بل انه كثيرا ما كان يبكيها .
وهكذا استطاع شيئا فشيئا أن يجعلها لا تقدم على أى شيء الا بعد استئذانه ، حتى أبسط الأشياء وأتفهها ، وأحيانا ما كانت تتم تأهبها الطويل المعقد للذهاب الى الأوبرا ، واذا به يرغمها على البقاء فى قصر اللكسمبور.
وفى أحيان أخرى كان يرغمها على الذهاب الى الأوبرا ، أو على اسداء المعروف الى سيدات تمقتهن ، أو تحس الغيرة منهن . بل انها لم تعد حرة فى تسريحة شعرها ، فكثيرا ما كان يرغمها على تغييرها ، أو تبديل ثيابها .
ويمارس ذلك كله بصورة علنية فى بعض الأحيان. وكثيرا أيضا ما أرغمها على ايذاء أشخاص يروقونها ويتصنع الغيرة منهم .

« وبلغ من تمكن هــذه السيطرة انها تعودت فى كل مساء أن تأخــذ منه التعليمات فيما يتعلق بتسريحة شعرها وبرنامج الغد . ولـكنه كان فى الغد يغير رأيه فى كل شيء . وتبكى الأميرة كثيرا . وصارت تحرص على مداومة الاتصال به بواســطة خدم مؤتمنين ، لأن مسكنه كان عند مشارف القصر . ويغدو الرســـل ويروحون مرارا بينها وبينه طول الوقت الذى تستغرقه عملية زينتها وارتداء ملابسها ، كى تعرف بالتحديد أى الشرائط تضع فى شعرها ، وأى الملابس ترتدى ، وأى أنواع الحلى تتزين بها . والغالب أن يجعلهــا تلبس ما لاتريد اطلاقا أن تلبسه . فاذا ما تجاسرت على مخالفته فى أقل شيء من هذه الأشياء عاملها كما لو كانت خادمة ، فتسح الدموع من عينيها عدة أيام .

« ومن عجب أن يصل الأمر بالأميرة الفخيمة العالية

المقام الى هذا الحد من الاذلال . فهى محبة للظهور فى الحفلات بأبهى زينة ، ولاظهار غطرستها وكبريائها أمام الكافة فى اسراف لايعرف الاعتدال ، واذا بها تتناول طعامها سرا معه ومع أشخاص لا مكانة لهم ، وهى التى لم يجرؤ على الجلوس معها الى المائدة الا الأمراء الذين يجرى فى عروقهم الدم الملكى . والأدهى من هذا أن الجزويتى ريجليه الذى عرفته طفلة ، وتولى تثقيفها . كان يحضرهذه الوجبات السرية من غير أن يشعر بالخزى من ذلك ، ومن غير أن تشعر الأميرة بالحرج . وكانت مدام دى موشى أمينة سر كل هذه التصرفات السرية الغريبة . كانت تتولى مع ريون اختيار المدعوين للطعام، وتحديد الأيام . وكان ذلك كله يجرى علنا فى قصر اللكسمبور ، حيث كان الجميع يتجهون لقضاء حوائجهم الى ريون ، الذى كان يحرص على أرضاء الجميع ، وعلى الظفر باحترام كامل لا يسمح ببعضه للأميرة ربة القصر، بل كان يتعمد أمام الكافة أن يرد عليها باجابات جافة تجعل الحاضرين يخفضون أبصارهم الى الأرض، وتجعل وجه الأميرة يحمر بشدة » .

ولكن ريون بهذه المعاملة كان دواء السأم الذى يخيم على حياة الدوقة المتكبرة المدللة . ومثل هؤلاء النساء يحببن أن يعاملهن عشاقهن بازدراء ، ولا يحببنهم الا قساة جبارين .

الفصل الخامس عشر :

علاج الحب

الواقع ان علاج الحب يكاد يكون مستحيلا . اذ يجب لتحقق ذلك لا الخطر الذى يسترعى انتباه المرء الى العناية بالمحافظة على ذاته فحسب ، بل يجب أيضا أن يتوفر ما هو أصعب من ذلك ، وهو استمرار الخطر الذى يحتاج تجنبه الى مهارة واعمال فكر ، كى ينفسح الوقت لتولد عادة التفكير فى المحافظـــــة على الذات والاهتمام بها ، من قبيل الوقوع بين أيدى الأعداء أو قبائل المتوحشين (كما حدث لمسيو كوشليه حينما غرق وانتشله المغـاربة) . أما المخاطر التى يمكن للمرء أن يروض نفسه على تعودها ، كالزوابع أو البرد القارص، فسرعان ما يستنيم لها الشخص ، ثم يتجه تفكيره الى من يحب ، وقد كسته الذكرى مزيدا من الفتنة .

بل ان مخاطر القتال أحيانا ما تذكر المقاتلَ بحبيبته وتزيده تعلقا بها . وفى شعر عنترة الفارس العربىالأسود شواهد كثيرة من هذا القبيل .

وقد قلنـــا آنفـــا ، فى أكثر من موضع ، وكررناه بلا انقطاع ، أن حب الرجل الشديد التعلق بمن يحب ينبض بمزيد من القوة ، حتى ليرتجف بدنه لكل ما تصوره له المخيلة ، وكأنما كل شىء فى الطبيعة يحدثه عن حبيبته

بلسان فصيح . ومثل هذا الاستمتاع الخيالى شديد السطوة ، بحيث يخبو الى جانبه كل خاطر آخر .

فعلى الصديق الذى ينشد شفاء هذا المريض بالحب أن يكون منحازا الى المرأة التى يحبها هـــذا المريض . والمشاهد ان جميع الأصـــدقاء الذين ينقصهم الفطنة يفعلون نقيض هذا ، ويظهرون بمظهر العذال أو الخصوم ... فطبيعى ألا يعيرهم المحب الولهان أذنا مصغية .

فينبغى ألا يغيب عن بال الصديق المداوى للعاشق انه لو خير هذا العاشق بين ابتلاع أسـخف المعتقـدات وتصديق أشد الأوهام بهتانا وبطلانا وبين التخلى عن كل ما يربطه بالحياة ، لما تردد فى ابتلاع تلك الأباطيل ، ما دامت تمجد محبوبته ، وهو مستعد أن ينفى عنها جميع الرذائل المنسوبة اليها وجميـع الخيانات الفظيعة التى رميت بها ، ولو كلفه ذلك حياته . فمن شـأن الحب العاطفى الجارف أن يغفر كل شىء ، وينسى كل اساءة بمضى فترة وجيزة من الزمن .

أما ذوو الطباع الرزينة العاقلة فيحتاجون الى انقضاء عدة شهورعلى اشتعال الحب فى قلوبهم كى تبردعاطفتهم ، ويروا عيوب الحبيبة أو رذائلها . وهؤلاء يجدى معهم العلاج والنصح والتبصير .

فيجدر بالصديق الحصيف الذى يريد شفاء صديقة مما به من الحب العاثر أن يتجنب ذمها ، بل يحسن به - على العكس - أن يحدثه باستمرار ، وبصورة مباشرة وملحة ، عن حبيبته ، وعن محاسنها ومفاتنها . وفى الوقت نفسه يدس فى ثنايا هذا الاطراء بعض الوقائع الصغيرة عن رذائلها ، ويترك هذه البذور تنمو على مهل .

أما الرحلات التى يقوم بها العاشق بمفرده فتأتى بنتيجة عكسية ، فما أكثر المذكرات التى كتبها عشاق التمسوا فى الأسفار خالين بأنفسهم سلوان الحب ، فجاءت هذه المذكرات حافلة طول الوقت بالدموع والذكريات المثيرة للأحزان ، والمؤججة للمشاعر. وليس من شىء يذكر العاشق بحبيبته مثل المفارقات. فالاختلاط فى باريس بالحسان البارعات الجمال، الفاتنات الساحرات الحديث فى صالوناتها المتألقة من شأنه أن يذكر العاشق دائما بحبيبته التى فارقها فى الريف ، فيتصل بكاؤه عليها وحنينه اليها . وهذا هو « سلفياتى » يقول :

ـ أن أبهى حسان باريس المشهورات بالجمال والسحر واللطف كن يزدن من تعلقى بحبيبتى المسكينة التى تركتها وحيدة حزينة فى بيتها المنزوى فى رومانيا . وهكذا كنت أرقب باستمرار الساعة الكبيرة فى الصالون الباريسى الفخم ، وأتخيلها وهى خارجة للسير على قدميها فى ذلك الوقت ، تحت المطر المنهمر ، لزيارة احدى صديقاتها . وهكذا كان كل ما ألتمس فى قربة نسيانها يذكرنى بها ، على سبيل المفارقة ، وأنا منغمس فى هذا المجتمع الثرى الباهر الخلاب ، بل ان هذه البيئة المناقضة لبيئتها كانت أقوى تذكرة لى من ارتياد المواطن التى كنت ألقاها فيها .

وهكذا يتضح انه لكى تكون الغيبة عن الحبيبة مجدية ، ينبغى أن يكون الصديق المعالج هناك أيضا باستمرار، كى يشاركه خواطره عن حبه ، ويكررها عليه باستمرار ، حتى يجعلها مملة له بقدر الامكان بفرط طولها وكثرة اعاداتها ، بحيث تغدو هذه الأحاديث فى النهاية مطروقة مبتذلة لا طرافة فيها ولا جدة .

ولئن كان من العسير نسيان امراة وجد الرجل بقربها السعادة ، فما ذلك الا لأن الخيال لا يمل تصـــويرها وتجميلها أمام عينى المحب .

ولا أتحدث هنا عن الـكبرياء ، فهى علاج عنيف قاس وناجع ، ولـكنه ليس فى مقدور ذوى القلوب الرقيقة والنفوس المرهفة .

والمشاهد الأولى من روميو وجولييت لشكسبير تقدم لوحة رائعة ، فما أبعد حال الرجل الذى يقول لنفسه فى أسى وهم :

ــ لقد اقسمت ألا تحب !

عن حال ذلك الآخر الذى يهتف وهو فى قمة السعادة :

ــ والآن ، لتضع الأحزان ما شـاءت ، ولتأت كما تشاء !

* * *

وانظر الى قول « لامرمور » :

ــ ستخبو عاطفتها كما يخبو المصباح الذى لا تجد شعلته وقودا تتغذى به ؟

ان الصـديق المعالج للعاشق ينبغى أن يحذر اثارة الأسباب أو التعليلات السيئة ، من قبيـل الـكلام عن « الجحود » ، ففى ذلك اثارة لعملية التبلر ، واتاحة فرصة لانتصارها . ذلك انه لا وجود فى علاقة الحب لما يسمى «الجحود» ، لأن اللذة الفعلية ثمن كاف وأكثر من كاف لأعظم التضحيات وأبرزها . ولست أجد اساءة فى هذه العلاقة سوى الافتقار الى الصراحة . أما ماعدا هذا فلا يعد تقصيرا ولا ذنبا ، وكل تهمة به فهى تهمة جائرة لا أساس لها .

وكلما هاجم الصـــديق المعالج للعاشق ذلك الحب مواجهة ، رد عليه العاشق بقوله :

ـ ان حبى ، مهما بلغ من غضب حبيبتى واعراضها، يرتفع بى عن مستوى التاجر وأســـلوب التجارة أو المقايضة . وما أشبه الحب بمن يحصل على ورقة من أوراق النصيب الذى ليس فيه الا جائزة واحدة ضخمة ، تتجاوز ألوف المرات كل ما يخطر ببالك فى عالمك البليد الحس الذى يجرى على سنن العقل والمصلحة المحسوبة .. واننى لأجد فى بشاشة حبيبتى ليونورا عنـــدما تستقبلنى ما يعدل مملـكة من ممالك دنياك : مملـكة كل ما فيها سماوى كريم سمح !.. بل ان أرقى فضائل ومزايا دنياكم لا تعدل فى لقاءاتنا الا ما هو عادى مبتذل. فدعنى على الأقل أحلم بقضاء حياتى قرب هذا الـكائن العلوى ، وان كنت أرى ان ألسنة السوء وشت بى عندها، ولم يبق لى أمل فى السعادة بقربها ، ولـكنى على الأقل سأضحى فى سبيلها بكل رغبة فى الثأر أو الانتقام !

* * *

وليس من الممكن ايقاف الحب عن بلوغ مداه الا فى بواكيره الأولى . ففى تلك المرحلة التى لم يأخـذ فيها الحب مداه توجد وسائل كثيرة للسلو ، مثل الارتحال المفاجىء أو السريع ، وملهيات المجتمع الراقى ، ومثل ما حدث فى حالة الـكونتس كالمبرج من الالتجاء الى حيل كثيرة صغيرة يستطيع الصديق المعالج أن يستخدمها .

فمن الممكن أن يقال للعاشق ، بطريقة عفوية ، وكأنما يحدث ذلك بالصدفة ، ان الحبيبة لا تبذل له بعض ما تبديه من آيات الرقة والتهذيب والتقدير لمنافســه .

ويكفى فى هذا الشأن أن تقال له أهون الأشياء واقلها مظهرا ، ذلك ان جميع التصرفات لا تبدو فى عين العاشق الا بمثابة « رموز » .

ومثال ذلك أن يقول له :

ـ انها لا تمنحك ذراعها عند الصعود الى مقصورتها فى الأوبرا ...

وثق أن ذلك سيكون له عنده وقع شديد جدا ، ويشعر من جرائه بالمهانة . وليس أقتل للتبلر والعاطفة الوليدة فى القلب الرقيق الحساس من هذا الشعور ، لأنه يدمر التبلر ويسرى فى كيانه مسرى السم ؟

بل ومن الممكن رمى أو اتهام المرأة التى تعبث بقلب الصديق العاشق ، أو تسىء معاملته ، بأن بها عيبا جسديا خفيا لا يمكن التحقق منه ، وصل الى علمك من احدى صديقاتها أو قريباتها ... وليكن عيبا يثير السخرية ، لا الشفقة . والمهم أن يكون ذلك العيب من المستحيل تماما التحقق منه ، لأنه لو أمكنه التحقق منه ، وبفرض انه وجده حقيقيا ، فان خياله عندئذ كفيل أن يستوعبه ويمتصه ، وسرعان ما يختفى كل أثر لذلك العيب فى نظره . فليس يستطيع مقاومة المخيلة الا المخيلة نفسها . وكان هنرى الثامن يعرف هذا تمام المعرفة عندما أشاع مثل هذا التشنيع حول الدوقة دى مونتسبان الشهيرة .

فعلى من يريدون صيانة أى فتاة من الوقوع فى الحب أن يحسنوا حراسة مخيلتها حتى لايثيرها مثير.. وكلما ارتقت عقليتها وتربيتها وثقافتها لم سهل تعرضها لخطر الحب . ومن الخطورة بمكان أن ترتبط ذكريات

الفتاة حديثة السن بصورة متكررة بشخص بعينه .
واذا ما ضاعف من أهمية هذه الذكريات شعور بعرفان الجميل ، أو الاعجاب ، أو حب الاستطلاع ، فقد أشرفت الفتاة عندئذ على حافة هاوية الحب !

وكلما شمل حياة الفتاة اليومية الملل ، عظم تلهفها أو قابلية خيالها للاشتعال بالحب ، لأنها فريسة سهلة لما يسليها أو يثير فضولها أو اعجابها . وعند بداية العاطفة لا علاج الا الملهيات السريعة الناشطة ... أو السفر السريع طلبا للتسلية ورؤية المشاهد الجديدة ، التى سرعان ما تشغل المخيلة ، وينطمس أثر العاطفة الوليدة .

الفصل السادس عشر :

تباين الطبائع

جميع أنواع الحب ، وجميع التخيلات ، تتخذ لدى الأفراد لون طبع من ستة طباع ، هى كما يلى :

١ ــ الطبع أوالمزاج الدموى، أوالفرنسى ، وانموذجه المسيو دى فرانكى (على نحو ما يتبدى ذلك فى مذكرات مدام دبيناى) .

٢ ــ الطبع أو المزاج الصفراوى ، أو الأسبانى ، وانموذجه بجويلم (على نحو ما يتبدى فى مذكرات سان سيمون) .

٣ ــ الطبع أو المزاج السوداوى ، أو الألمانى ، وانموذجه دون كارلوس (كما وصفه الشاعر شيلر) .

٤ ــ الطبع أو المزاج البلغمى ، أو الهولندى .

٥ ــ الطبع أو المزاج العصبى ، وانموذجه فولتير .

٦ ــ الطبع أو المزاج الرياضى ، وانموذجه ميلون دى كروتون .

ولئن كان تأثير الطبع أو المزاج يتبدى فى الطموح ، والبخل ، والصداقة الخ .. الخ .. فكيف يا ترى يكون تأثيره فى الحب ، الذى له علاقة ضرورية بالبدن ؟

ولنفرض ان جميع أنواع الحب يمكن أن ترجع الى اربعة ضروب كما لاحظنا من قبل ، الا وهى :

الحب العاطفى ، وانموذجه جولى ديتانج .
حب الميل أو الاستلطاف ، أو الفندرة .
الحب الجسدى .
حب الفرور (فأى دوقة بالغا ما بلغ عمرها لا يمكن أن تتجاوز الثلاثين فى نظر أى بورجوازى !)

وكل نوع من هذه الأنواع الأربعة يمكن أن ينتمى الى مزاج من الطباع الستة التى ذكرناها آنفا ، مما يخرج لنا أربعة وعشرين لونا من ألوان الحب وسلوكه الظاهرى وأخيلته . ان كلا من تيبريوس قيصر وهنرى الثامن كان يحب النساء حب استلطاف ، أو حبا جسديا ، ولكن مزاج كل منهما كان مختلفا عن مزاج الآخر ، وخياله كان مختلفا بالتالى أيضا .

ومن جهة أخرى نجد الاطارات الاجتماعية التى يجرى فى نطاقها الحب على ستة أنواع أيضا ، نجملها فيما يلى:

١ ـ الاستبداد الآسيوى ، على نحو ما هو معروف فى حكومة آل عثمان بالآستانة أو القسطنطينية .

٢ ـ الملكية المطلقة ، على طراز لويس الرابع عشر .

٣ ـ الأرستقراطية المقنعة بميثاق ، أو حكومة أمة تجرى لصالح الأثرياء ، مثل انجلترا (القرن التاسع عشر) مع اتباع الجميع لقواعد الأخلاق كما وردت فى التوراة .

٤ ـ الجمهورية الفيدرالية ، أو الحكومة التى تجرى لصالح الجميع ، كما هو الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية .

٥ ـ الملكية الدستورية .

٦ ـ دولة ثورية مثل اسبانيا والبرتغال وفرنسا

(القرن التاسع عشر) ، ومن شأن حالة الثورة فى المجتمع أن تضفى على الجميع عاطفة جارفة ، وتلقائية فى السلوك ، والعرف الأخلاقى ، وتحطم المواضعات والتقاليد السخيفة . فقد ظهر الوزير رولاند بحذاء من طراز غير تقليدى ، ليست له « توكة » حتى لقد صاح ديموريه به :

ـ اه ياسيدى ! لقد ضاع كل شىء !

وفى الاجتماع الذى عقد برئاسة الملك ، وضع رئيس الجمعية الوطنية ساقا على ساق ! وكل ذلك من شأنه أن يملى للشباب فى الاندفاع ، ويجعلهم يحتقرون غراميات الرغبة أو الاستلطاف ، وغراميات الغرور .

ومثل هذه الحالة يمكن أن تستمر مدة كافية لانشاء عادات ينتهجها جيل بأسره . وقد بدأ ذلك فى فرنسا عام ١٧٨٨ ، وتوقف عام ١٨٠٢ ، ولكنه استؤنف فى عام ١٨١٥ ، ولم يزل ساريا الى وقت كتابة هذه السطور (عام ١٨٢٥) ولا يدرى أحد متى ينتهى .

* * *

ثم هناك ايضا ، فضلا عن فروق المزاج وفروق المجتمع ، فروق السن ، والفروق الفردية فى نهاية المطاف ... وسأضرب مثلا لهذه المفارقات حين تجتمع فى الحب الواحد :

لقد وجدت فى درسدن ، لدى الكونت فولشتاين حب الغرور ، والمزاج السوداوى ، والعادات الملكية ، وسن الثلاثين ... والخصائص الفردية المتميزة .

وكما ان الانسان لايمكن ، من ناحية الفسيولوجيا ـ أن يعرف شيئا تقريبا عن نفسه الا عن طريق التشريح

المقارن ، كذلك الأمر فيما يتصل بالعواطف والغرور وما الى ذلك من مسببات الأوهام ، فنحن لا نستطيع أن نتبينها فى أنفسنا مباشرة ، بل عن طريق مواطن الضعف التى لاحظناها لدى الآخرين .

ولهذا الغرض سأحاول أن أرسم بضعة ملامح عامة للحب لدى الأمم المتباينة . وأستميحكم عذرا اذا أشرت فى كثير من المواضع الى ايطاليا ، وأنا أتكلم عن غيرها من البلاد ، فهذا البلد – فى حالة أوروبا الراهنة – هو المكان الوحيد الذى ينمو فيه النبات الذى أتحدث عنه ، بكل حرية وطلاقة . ففرنسا يسودها الغرور ، وألمانيا تسودها فلسفة مزعومة تكاد تميتنا من الضحك ، أما بريطانيا فتسودها الكبرياء الخجول أو المتهيبة تعذب أهلها وتكاد تزهق أنفاسهم .

* * *

ومعظم ما أرويه مستمد من مذكرات متناثرة كتبها أثناء رحلاته « ليزوفسكونتى » ، وقد شهد أحداثها شهود العيان ، وهى تتراوح ما بين عام ١٨٠٧ وعام ١٨١٩ . وقد غيرت بعض التواريخ عمدا ، تسترا على الأشخاص الحقيقيين من أبطال هذه الأحداث. وأوجزت بعض المواضع ، حتى أتجنب خدش الحياء العام بما فى هذه المذكرات الشخصية أحيانا من صراحة مسرفة ..

الفصل السابع عشر :

الحب فى فرنسا

سأحاول وأنا أكتب عن وطنى فرنسا أن أتخلص من مشاعرى الوطنية المتحيزة ، كيلا أكون الا فيلسوفا موضوعيا أمينا .

ان الرجال الفرنسيين الودودين الظرفاء لايشعرون غالبا الا بالغرور الباطل والمظاهر الجوفاء والرغبات أو الشهوات الجسدية، وهؤلاء الرجال الفرنسيون هم الذين شكلوا النساء الفرنسيات ، لذا نشأن أقل توثبا وهمة وبأسا يخشى وقوة تأثير من الأسبانيات أو الايطاليات . وبالتالى فهى أقل حظوة منهن بالحب الحقيقى .

فليس للمرأة من القوة الا بمقدار الشقاء أو الايذاء الذى يمكن أن تعاقب به عاشقها ! وعندما لايكون شعور الرجل العاشق لا يتعدى الغرور بالأباطيل ، تكن أى امرأة صالحة لأغراضه كأى امرأة أخرى . وبالتالى لا تكون أيهن ضرورية له ولا غنى عنها ، وتكن لذة الرجل منحصرة فى الفوز والانتصار ، لا فى الاحتفاظ بالمرأة والارتباط الدائم بها قلبيا . وعندما تكون كل مشاعر الرجل هى الرغبة أو الشهوة الجسدية ، يتجه الى البحث عن الفتيات أى بنات الهوى . وهذا هو السبب فى ان بنات الهوى الفرنسيات فاتنات ، بعكس زميلاتهن الاسبانيات .

ففى فرنسا تستطيع بنات الهوى أن يمنحن رجالا كثيرين من السعادة واللذة ما يضاهى ما يحصلون عليه من وصال السيدات المصونات، والسعادة فى هذه الحالة خالية من الحب ومن التعلق . ولئن كان الفرنسى يحترم شيئا أكثر من عشيقته ، فهو غروره !

والشاب الفرنسى الباريسى يتخذ من عشيقته مايشبه الجارية أو الأمة فى عصر الرقيـــــق ، مهمتها أن تمده بالاستمتاع الذى يرضى غروره ، فان قاومت مطالب هذه الرغبة المسيطرة تركها على الفور الى سواها ، وأزهاه وأشبع غروره أن يروى لأصحابه بأى عنجهية استغنى عن خدماتها .

وها هو فرنسى يعرف وطنه جيدا ، وهو «مايلهان» يقول :

ــ العواطف العظيمة نادرة فى فرنسا ندرة الرجال العظماء !

وتعجز اللغة عن بيان مدى استحالة موقف العاشق المهجور على الفرنسى ، وكيف انه لايمكن أن يشعر باليأس والأسى القاتل على فراق محبوبته ، تحت سمع المدينة وبصرها . ولكن هذه الظاهرة شائعة جداً بين رجال البندقية أو بولونيا (بايطاليا) .

فان أردت العثور على الحب الحقيقى فى باريس ، فعليك أن تهبط الى تلك الطبقات التى لم تعرف التربية العالية أو التعليم أو الغرور بالأباطيل ، والتى لم تزل لديها الطاقة والهمة بفضل اضطرارها للصراع فى سبيل الاحتياجات الحقيقية .

ان الشاب الباريسى من الطبقات المرفهة يخزى أن يراه الناس عاجزا عن اشباع رغبته فى امرأة ، أومحروما

منها شقيا بصدها ، ويرى ذلك عارا يحط من قدره .
والفرور لايسمح للواحد منهم أن يبدو مكفوفا عن شيء من مظاهر الجاه والصدارة والنجاح . وليس هـذا فى شئون الحب فحسب ، بل ان للواحد منهم اذا أذيع نبأ غريب غير متوقع ، يرى من علامات الوجاهة أن يزعم انه كان يعرف ذلك السر من قبل . ويشـيع ذلك بين السادة المقيمين فى الريف أيضا . وقد شـهدت أخيرا شابا قال بهدوء ــ وصفاقة ــ عندما أذيع مصرع الدوق دى بيرى المفاجىء :

ــ كنت أعرف ذلك !

ولم يكن الحال هكذا فى العصر الوسيط ، حيث كان الحب محفوفا بالخطر ، وهذا هو السبب ــ فيما أعتقد ــ فى ان رجال القرن السادس عشر كانوا أرقى بكثير من رجال القرن التاسع عشر ، وأكثر اصـالة وتلقائية وشجاعة وصدق مشاعر . أما الآن وقد اسـتقرت الأوضاع، وساد الأمن والأمان، واستكان الرجال للدعة ، فالنفوس خائرة .

وهذا أيضا ــ فيما أعتقد ــ هو السر فى ان البلاد التى لم تزل حالة الأمن فيها غير مستقرة ، مثل اسبانيا وايطاليا ، حافلة بالرجال ذوى الشخصـية والهمة والعواطف الصادقة . يضاف الى هذا ان شدة الحرارة فى صيف تلك البـلاد تنشط الصفراء ثلاثة أشهر فى السنة ، وتدفع الرجال للحركة بحماسة ، وتبرز هممهم فى الحب ، وفى الحرب ، وفى مجالات كثيرة .. و ..

ولو نظر الى جزيرة كورسيكا مثلا ، لوجدنا تعداد سكانها أقل من نصف عدد سكان أى محافظة فى فرنسا ، ومع هذا أنجبت فى السنوات الأخيرة عددا من مشاهير

الرجال كبار الهمة ، آخرهم نابليون . فالمرء فى هـذه الجزيرة معرض للخطر فى كل لحظة ، ولا يأمن عند خروجه من بيته أن تصرعه رصاصة فى ثأر . فالكورسيكى لايمكن أن يصفح عن اساءة ، بل يردها باستماتة . وما أبعد هـــذا عن جو الصالونات والمجاملات والطراوة الباريسية !

والمشاهد ان الكثيرين من شبابنا ذوى الهمة فى ميادين القتال يخشون الحب الحقيقى ، حتى ان ابن العشرين منهم يفر بجبن من رؤية فتاة يراها باهرة الجمال ، حتى لايسيطر عليه حبها سيطرة لا يملك لها دفعا . وهكذا تظل قلوبهم باردة ، ولايدركون انأعاصير العواطف تثير موج البحر كالجبال ، ولكنها فى الوقت نفسه تملأ أشرعة السفن وتحملها الى بعيـــد . أما الاكتفاء باللهو على الشاطىء ، فلا يوصل الى شىء !

ان الحب زهرة رقيقة لذيذة ، ولكن لابد من الاقدام على قطفها من فوق حافة هاوية رهيبة ! ومن يخافون الهوة لايحصلون على هذه الزهرة . وكذلك من يخشون السخرية والاستهزاء عنـدما يظهر عليهم قلق الحب الجارف ، يقعدون عن تذوق هذه السعادة التى لا نظير لها .

* * *

واستأذن القارىء فى مزيد من الذم للأسلوب الفرنسى فى الحب . وأتوقع أن يكون لهذا صـــدى عنيف لدى قرائى ، الذين سيكيلون لى الصاع صاعين ، أو مائة صاع على الأرجح ، دفاعا عن السمعة القومية والشرف الوطنى !

ولفرنسا اهمية خاصة فى هذا الكتاب ، لأن باريس

تحتل مكانة صالون أوروبا ، وهى القدوة فى الذوق والأزياء ، بفضل تفوق اللسان الفرنسى ، وازدهار الأدب الباريسى .. حتى ان معظم رسائل الطبقة الراقية فى فيينا ولندن مكتوبة بالفرنسية ، أو حافلة بالتضمينات والاقتباسات والاشارات الى مؤلفين فرنسيين . بل ان الكتاب فى انجلترا يستخدمون فى مقالاتهم التي تنشرها الصحف ألفاظا فرنسية ، معظمها لا يستخدم فى فرنسا ، ولا وجود لها الا فى كتب النحو الفرنسى المكتوبة بالانجليزية لتعليم الانجليز . والشاهد على هذا مجلة ادنبره التى تصدر فى اسكتلندة ، كما ان مذكرات الكونتس دى لشتناو عشيقة ملك بروسيا الأسبق شاهدة على ذلك أيضا !

بل ان الناس فى صالونات أوروبا الراقية يقلدون ما يجرى فى صالونات باريس ، من المظاهر ، والتظاهر . وأسلوب معاملة المحبوبة ، أو تجاهل المنافسين ، أو مخاطبة الأنداد ، وما الى ذلك من الشكليات التى يعيشها أهل الطبقة العليا فى باريس .

ويمكن ايجاز سمات المجتمع الفرنسى الراقى فيما يلى :

١ـ السخرية من جميع المسائل الكبرى العامة ، وعدم الاهتمام بها ، كما لو كانت دون المقام ! فليس لديهم متسع من الوقت لهذه الأمور . ولكن الأمر مختلف لدى من يقيمون فى الريف . ومع هذا يجد الفرنسى الأنيق انه لا يليق به أن يظهر العجب من شىء ، أو الاعجاب والانبهار بشىء ، لأن ذلك يوحى بأنه فى مستوى أقل من موضوع اعجابه ، أو فى مستوى أقل من جاره ، ان آثر هذا الجار السخرية مما أثار اعجابه.

أما فى ألمانيا ، وأيطاليا ، وأسبانيا ، فالاعجاب ظاهرة طبيعية تفيض طيبة وحسن نية ، وتثمر السعادة والسرور. فالرجل فى تلك البلاد يعتز بشعوره بالاعجاب ، ويزهو به ويفتخر ، ويحتقر من يهزأ به . ولا يتعرض عندهم للسخرية والزراية الا من يضل طريقه الى السعادة ، لا من يخرج على النمط المرسوم المتكلف فى السلوك ... ولهذا لا يمتنع الناس فى تلك البلاد عن اقامة المهرجانات الفخمة والتلذذ بالاعجاب بها تلذذا فطريا تلقائيا. وهذا هوالسائد فى بلاط مدريد، ونابولى.

٢ ـ يعد الفرنسى المتانق نفسه أتعس البشر وأحقهم بالزراية والهزء ان اضطر لقضاء وقته وحيدا . وماذا يكون الحب الحقيقى بدون الوحدة ؟

٣ ـ الانسان العاطفى لا يفكر الا فى نفسه ومشاعره ، اما الانسان الباحث عن المظاهر فلا يفكر الا فى الآخرين ونظرتهم اليه ، ولذا فهو متكلف دائما ، لأن رأى جارك فيك هو العنصر الأساسى لسعادتك .

وانى لأتصور الفرنسى الأنيق حين يهم بالقاء نفسه من الشرفة منتحرا ، يتحرى أن يكون وضعه رشيقا فى نظر الناس عندما يستقر جسده على أرض الشارع !

الفصل الثامن عشر :

أرنستين
أو مولد الحب

ويلحق بالحب فى فرنسا ما قالته لي سيدة ذكية فطنة ذات تجربة من ان الحب لايولد فجأة كما يشاع.. بل تكون ولادة الحب على سبعة مراحل متميزة ، وروت تأييدا لذلك الرأى قصة أوردها فيما يلى :

كانت فتاة صغيرة السن تقطن قصرا منعزلا فى الريف، حيث يثير أتفه الحوادث الجديدة اهتماما كبيرا ، كأن تلمح فجأة شابا فى الغابة القريبة يمارس الصيد أو القنص . وبشىء من هذا القبيل بدأت قصة هذه الفتاة المسماة ارنستين التى كانت تعيش خلية البال تماما فى هذه العزلة الكاملة ، مع عمها المسن الكونت س ، فى بقعة من أجمل بقاع مقاطعة الدفينيه ، قرب نهر دراك . وتوسمت ارنستين فى ذلك الشاب الصياد الذى ساقته إليها الصدفةنيل المحتد ، وداعبتخاطرها صورته عدة مرات . فماذا يمكن أن يشغل بالها فى تلك العزلة المسئمة التى يجري فيها كل شىء على يد الخدم المسنين بكل رتابة يوما بعد يوم بلا تغيير ؟

وذات مساء من أمسيات الربيع كانت ارنستين تطل من نافذتها ، عندما رأت مرة أخرى ذلك الصياد الشاب الذى كانت قد لمحته قبل ذلك ببضعة أيام ، عند حافة

الغابة فيما وراء البحيرة التى يطل عليها القصر العتيق المحصن الذى يرجع تاريخه الى العصور الوسطى . وكانت فى يده باقة من الزهر . وتوقف الشاب كأنما لينظر اليها ، ثم رأته يقبل تلك الباقة ويضعها بكل احترام ورقة فى فجوة باحدى أشجار البلوط الكبيرة العتيقة على شط البحيرة .

وما أكثر الخواطر التى ولدتها هذه الحركة الصغيرة ، كأنها حصاة ألقيت فى بركة ساكنة منذ سنين ! وهكذا بدأت فى حياة إرنستين حقبة جديدة . أتراها تجسر على الذهاب لترى هذه الباقة ؟ وأخذت ترتجف خوفا من مجرد التفكير فى هذه الخطوة. « وماذا لو أن الشاب برز فجأة من الغابة عندما تقترب من البلوطة ؟ وماذا عساه يقول عنى ؟ » مع ان هذه الشجرة بعينها كانت الغاية التى تنتهى اليها نزهتها اليومية الانفرادية . وكثيرا ما جلست فوق جذورها الهائلة التى تبرز فوق سطح العشب الذى يحف بها ، وكأنها أرائك طبيعية تحت هذا الظل الوارف .

ولم تكد ارنستين يغمض لها جفن تلك الليلة . وما بزغ الفجر حتى نهضت الى النافذة تفتش بنظرها عن البلوطة العتيقة فيما وراء البحيرة، وظلت ترمقها مبهورة الأنفاس .

ومرت عشرة أيام . وكانت ارنستين تحصى الأيام . ولم تلمح فى خلالها الشاب الا مرة واحدة ، حيث دنا من البلوطة ووضع باقة أخرى. ولاحظ عمها الكونت الشيخ انها تقضى الآن ساعات طويلة تطل من وصاوص النافذة المغلقة. فهكذا كانت تشعر بالأمان من أن الصياد الشاب يمكن أن يراها ، وهكذا كانت تشغل وقتها كله بالتفكير

فيه بلا رقيب . ثم أخذ يزعجها خاطر فظيع : ماذا لو اعتقد الشـاب ان تصرفاته لم تجد لديها استجابة ، وقرر عدم العودة ؟

ومرت أربعة أيام أخرى . وما كان أبطأها من أيام ! وفى اليوم الخامس لم تستطع الفتاة وهى مارة بقرب البلوطة العتيقة مع مربيتها أن تتمالك نفسها من اغراء القاء نظرة على الفجوة الصغيرة التى كانت قد رأته يضع الباقة فيها . وخطر الأرنستين انها لن تجد هنـاك الا بقايا أزهار ذابلة ، وكم كان ذهولها عندما أبصرت هناك باقة من أندر الأزهار وأجملها وأنضرها . وليس بينها ورقة واحدة ذابلة . وقد لمحت هذا كله بطرف عينها . وجالت ببصرها فيما حولها مدققة فى كل موضـع على امتداد دائرة قطرها مائة خطوة ، وهى تتواثب هنـا وهناك كالغزال الشارد ، من غير أن تبتعـد كثيرا عن مربيتها وكأنها تحتمى بوجودها معها ، فلم تبصر أحدا. ولما تأكدت من خلو المـكان أفلتت راجعة الى البلوطة العتيقة ، وتجاسرت على تفحص الباقة اليانعة . يا الهى ها هى قصاصة ورق صـغيرة لا تكاد تبصرها العين مشبوكة فى عقدة الباقة ! وندت عن ارنستين صـيحة صغيرة ، لفتت نظر مربيتها ، فسألتها ما بها ، فزعمت لها أن قبرة طارت بقربها .

وما كان يخطر ببال ارنستين قبل أسبوعين انها يمكن أن تـكذب ..

واقتربت من الباقة ، ومالت برأسها لتقرأ الورقة من غير أن تمسها بيدها ، وقد صـــــــارت وجنتاها كالجمرتين ، فاذا بها سطر واحد :

ـ لقد مر على الآن شهر وانا أحمل الى هنا كل يوم

باقة جـــديدة . فهل يسعد باقة اليوم أن تسترعى اهتمامك ؟

وازداد وجهها احمرارا، واتجهت نحومربيتها تدعوها للعودة الى القصر . ومشت الى جوارها ساهمة شاردة النظرات ، وآلت على نفسها ألا تعود أبدا الى هـــذا الموضع . ومع هـــذا لم يزايلها القلق ، بل زاد بها استبدادا . وراحت تتعجب من أمر نفسها ، وتتساءل ألا تعود أبدا الى القاء نظرة على شجرتها الحبيبة ؟ ولكن صوت الواجب الذى تلقنته فى الدير الذى لم تبارحه الا منذ أربعة أعوام لتعيش فى هذه العزلة ناهض هـذه الرغبة الملحة بالعودة الى ذلك المكان كعادتها فى نزهاتها .

ولم يستطع شيء فى اليوم التالى أن ينتزعهـا من شرودها وأحلام يقظتها القاتمة . ولاحظ عمها الـكونت حالتها تلك ، فأمر بشد الجياد الى المركبة العتيقة ليذهبا معا فى جولة بأنحاء المنطقـة . وبعـد نزهة طويلة أمر الـكونت وهما فى طريق العودة بوقوف العربة فيما وراء البحيرة عند مشارف الغابة ، لأنه يريد افتقاد البلوطة العتيقة التى كان يزعم انها من أيام شرلمان . ويبدو أن عمرها الطويل كان يشعره بالشباب ، وهو على حدود الثمانين وها هى ارنستين اذن تجد نفسها مرة أخرى ـ برغم عهودها ـ بالقرب من تلك الشجرة ، فتضرجت وجنتاها بالحمرة الشديدة ، ومن غير أن تدرى وجدت نفسها تلقى عليها نظرة ، فرأت الباقة اليانعة ، فشحب وجهها ، لأن الباقة كانت بها أزهار سوداء ، وقد أرفقت بها ورقة مكتوب فيها : « ما أتعسنى وأشقانى ! لابد أن أبتعد الى الأبد ، فمن أحبها لا تتنازل بتقبل احتراماتى » .

واستطاعت ارنستين ان تقرأ هذه الـكلمات قبل أن

تمنع نفسها من ذلك ، وشعرت بخور شديد وترنحت ، فاستندت على الشجرة ، وسرعان ما فاضت مدامعها . وفى المساء قالت لنفسها :

ـ سيرحل الى الأبد ، ولن أراه بعدها أبدا ..!

وفى اليوم التالى ، قرب الظهر ، تحت وقدة الشمس فى شهر أغسطس ، وفيما هى تتنزه مع عمها تحت ظلال الأشجار الممتدة على شاطىء البحيرة الصغيرة ، لمحت على شاطئها الآخر ذلك الشاب يقترب من البلوطة العظيمة ، ويتناول باقته فيلقى بها فى البحيرة ثم يختفى . وخطر لأرنستين أن حركته كان فيها سخط وقهر ، ولم يلبث هذا الخاطر أن استولى على ذهنها فى صورة اليقين الجازم ، وآمنت أنه راحل الى غير رجعة .

وأثارت ارنستين القلق فى القصر سائر ذلك اليوم لشدة شحوبها ، وعصبية حركاتها وملامحها ، وهى التى كانت مفرطة الحيوية فياضة المرح فى كلامها ، ومصدر بهجة الجميع عادة . فتأكد لدى عمها الشيخ انها مريضة . وفى المساء لم تعارض اطلاقا عندما اقترح عليها عمها التنزه حتى الموج الذى تتوسطه البلوطة العتيقة على الشاطىء الآخر للبحيرة ، وألقت ببصرها وهى عابرة على الفجوة التى فى جذع البلوطة ، على ارتفاع ثلاثة أقدام عن سطح الأرض ، واثقة انها لن تجد شيئا ، فقد رأته بعينى رأسها يلقى بباقته الى البحيرة فى حنق ، ولكنها لدهشتها الشديدة رأت باقة جديدة هناك ، ومعها ورقة مكتوب فيها :

ـ اناشدك رحمة بشقائى الفظيع أن تتنازلى بأخذ الوردة البيضاء .

وبينا هي تقرأ هذه الكلمات امتدت يدها بلا وعى الى الوردة البيضاء الوحيدة بالباقة فأخذتها . وفى هذه اللحظة ناداها عمها الذى كان واقفا على مبعدة يتأمل ما حوله ، فخفت اليه وهى فياضة النفس بالسعادة والبشر ، وقد احتفظت بالوردة البيضاء فى منديلها الأبيض الصغير الشفاف ، بحيث استطاعت سائرالنزهة أن ترى لون الوردة من خلال نسيجه الهفهاف . وكانت حريصة وهى ممسكة بالمنديل الا تذبل أوراق الوردة .

وما أن وصلت الى القصر حتى صعدت وثبا الى حجرتها عند ركن القصر ، فى البرج المستدير ، حيث انفسح لها المجال لتتأمل وردتها ، من خلال الدموع التى كانت تنساب من عينيها الجميلتين .

وما معنى هذه الدموع ؟ سؤال كانت ارنستين تجهل جوابه ؛ وهى تضع تلك الوردة فى اناء من الكريستال عند رأس سريرها بعناية فائقة ، لأنها فى غرارة صباها لم تكن تعرف أنها دموع السعادة بشعورها انها محبوبة كل هذا الحب .

وهذا التصرف من جانبها آية المرحلة الثالثة من مراحل ميلاد الحب ، وهى مرحلة الأمل العريض . ولكن أصحيح أن ارنستين كانت على وشك الشعور بالحب ؟ أليس فى ذلك ما يصدم التفكير السديد ؟ أنها لم تر ذلك الشاب الا ثلاث مرات عن بعد لا يقل عن ٥٠٠ خطوة ، ومع هذا فها هى تذرف الدمع سخينا مدرارا شفقة عليه ! وهى التى أن لقيته بدون بندقيته وبغير زى الصيد لما عرفته غالبا . فهى تجهل اسمه ، ومن هو ، وما هو وضعه الاجتماعى ، ومع هذا تقضى سحابة نهارها فى اذكاء عواطفها نحوه ، وهى تتركز كلها

فى تنويعات من عبارة واحدة أو عبارتين :

ــ ما أحلى أن أكون موضع حبه ! ما أسعدنى أن أكون محبوبة منه ! أحقا هو يحبنى ؟

ومع انها سليلة الأمجاد ، وساكنة القصر العريق ، لم يخطر ببالها أن تقول متشككة :

ــ لعله ليس سوى ابن أحد فلاحى هذه الناحية ..

وبديهى ان ارنستين لم تكن تتبين كنه عواطفها ، ولو ناقشتها وحللتها لكانت خليقة فى الغالب أن تقاوم سلطانها على فؤادها . ولسذاجة تربيتها لم تدرك أن ما يخالجها يتعدى الرحمة والشفقة والمودة البريئة .. وهى لم تأخذ الوردة البيضاء الا تحاشيا لفقدان هذا الصديق المهذب ، وردا على تحيته المهذبة بمثلها .

وظلت أربعة أيام فريسة أعنف المشاعر ، تجترها فى وحدتها ، وهى تشعر بخوف غامض ، ولذا رفضت فى تلك الأيام مبارحة القصر . وفى اليوم الخامس أصر عمها على أن تصحبه للنزهة فى الغابة الصغيرة ، وقد اشتد قلقه على صحتها . وهكذا وجدت نفسها على مقربة من البلوطة العتيقة ، وهناك لمحت هذه الكلمات على الورقة المرفقة بالباقة الجديدة .

ــ اذا تنازلت بأخذ زهرة الكاميليا ، ذهبت الى كنيسة قريتكم يوم الأحد .

وفى الكنيسة أبصرت أرنستين رجلا فى ملابس غاية فى البساطة ، فى نحو الخامسة والثلاثين من العمر ، ولاحظت انه لا يتحلى ولو بصليب . وكان فى يده كتاب صلوات يطالعه ، ولكنه كان يمسك به بحيث لا تتحول عيناه عنها لحظة واحدة . وهكذا ظلت ارنستين طول

مدة القداس عاجزة عن التركيز فى الصلاة ، وسقط منها كتاب الصلوات وهى تغادر الأريكة الخشبية ، وكادت تقع على الأرض وهى تنحنى لاسترداده ، فاحمر وجهها كثيرا ، لأنها قالت فى نفسها :

ـ لعله راى مبلغ خيبتى فى حركاتى ، ولم يجدنى جديرة باهتمامه .

وهى فعلا لم تره حين استردت كتابها وانتصبت واقفة ، لأنه اختفى تماما . وعبثا تلكأت بعد أن ركبت العربة كى توزع بعض النقود الصغيرة على غلمان القرية الفقراء ، فلم تلمح بين الواقفين لتجاذب الحديث عند الباب ذلك الرجل الذى لم تجسر على ملء ناظريها منه فى الكنيسة . وزعمت ارنستين ـ التى كانت حتى الآن مثال الصدق ـ انها نسيت منديلها وأرسلت للكنيسة أحد خدمها كى يبحث عنه ، كى يطول وقت انتظارها ، لعل وعسى ، ولكن الوقت مضى بغير طائل ، فأحست بالخيبة والانكسار :

ـ آه لابد أنه وجدنى عن قرب غير جميلة ، وحركاتى بعيدة عن الرشاقة !

وظلت هذه الأفكار تعذبها أثناء الزيارتين اللتين قام بهما عمها فى صحبتها قبل العودة الى القصر . وماكادت تصل الى هناك حوالى الساعة الرابعة حتى أسرعت تعدو فى الممشى الظليل نحو شاطىء البحيرة ، واقتربت من البلوطة بخطا ثابتة وهى مكتئبة النفس ، كأنما تدنو من الموت دنو الشجاع . وكانت واثقة انها لن تجد فى الفجوة شيئا ، وهى فعلا لم تر هناك الا زهرة ذابلة تخلفت من باقة الأمس . فقالت فى نفسها :

ـ لو انه كان راضيا عنى لما فاته أن يشكرنى بباقة زهر .

وعادت حزينة يائسة الى القصر، فصعدت الى حجرتها، وهناك أطلقت لدموعها العنان برهة ، ثم مسحت دموعها واقتربت من مرآتها تستشيرها ، وهى تسترجع كلمات صـــديقة لها فى الدير كانت تؤكد لها ان نظراتها آمرة متعالية منفرة ، ولـكنها لم تجد امامها الآن الا نظرة حزينة تطل من عينيها الزرقاوين الداكنتين .

ورن جرس العشاء ، وبصعوبة جففت مآقيها وهبطت الى الصالون حيث وجدت المسيو فيلار ، عالم النبات المسن الذى كان يحضر كل سنة لتمضية ثمانية أيام مع عمها الكونت س ، الأمر الذى كان يسوء مربيتها كثيرا ، لأنه يفقدها مقعدها على المائدة تلك المدة . ومر كل شيء على المائدة بسلام الى أن حان وقت الشمبانيا ، وحمل الساقى الدلو الى ارنستين ، وكان الثلج قد ذاب منذ وقت طويل ، فنادت أحد الخدم وقالت له :

ـ غير هذا الماء ، وضع ثلجا جديدا فى الدلو بسرعة !

فضحك عمها المسن وقال :

ـ ان لك لهجة آمرة متعالية تضفى على محياك بهاء وتلائمك تماما !

وما أن سمعت كلمة آمرة متعالية حتى انهمرت دموعها بحيث تعذر عليها اخفاؤها ، فبارحت القاعة وقد بدأ نحيبها يرتفع ، الأمر الذى أدهش الشيخين جدا .

وبعد يومين كانت مارة بقرب البلوطة العتيقة ، فدنت منها ونظرت فى الفجوة ، وكم كانت سعادتها عندما ابصرت هناك باقتى زهر صفيرتين ، فامسكتهما بمنديلها ،

وأسرعت تجرى الى القصر ، غير مبالية أن يكون ذلك الغريب المجهول مختفيا وراء احدى أشجار الغابة ليرقب حركاتها ، وهى الفكرة التى لم تبرح ذهنها من قبل ، وكانت تملى عليها الحذر الشديد ... وأدركها التعب من الجرى فوقفت فى منتصـــف الطريق برهة ريثما استردت أنفاسها ثم استأنفت الجرى لا تلوى على شىء ، وما أن وصلت الى حجرتها حتى قبلت الباقتين الصغيرتين وهى محمرة الوجه من الانفعال والفرح ... ولما هدأت ثورتها طالعت المـكتوب فى الورقة الأولى .

ـ لقد امتنعت عن رؤيتك بعد الصلاة ، لأنى خشيت أن يلمح الناس فى نظراتى اتقاد حبى ! فان كان قلبك خاليا ، فتنازلى بأخذ هذه الباقة .

أما الورقة الثانية فكانت مكتوبة بقلم الرصاص :

ـ لقد أتيت أمس ، وقيل لى من بعض من شاهدوك انك عبرت البحيرة الى هنا ، ولكنك لم تأخذى باقتى ، انت اذن مشغولة القلب . وهذا خير ، فمن الحماقة أن يتعلق من فى سنى بمن فى سنك . وداعا الى الأبد ، فلن أفرض نفسى عليك ، ولن أشغلك بعد ذلك بعاطفة تبدو لك جديرة بالسخرية !

ووجدت نفسها تجثو وتصلى شكرا لله ، لأن هـذا المجهول اعترف لهـا بحبه بعـد أن رآها عن قرب ! وشفعت ذلك بالابتهال الى العلى القدير أن يدلها على مواطن النقص لديها كى تصلح من أمر نفسها ولا يجد فيها ما يعاب !

ثم نهضت بعـد ذلك من ركوعها كى تقرأ الورقتين عشرين مرة . وكانت ثانيتهما على الخصوص مصـدر

لسعادة لاتوصف . وسرعان ما أدركت حقيقة مستقرة في فؤادها منذ أمد طويل : انها ما كانت لترتبط أوتتعلق أبدا برجل يقل سنه عن الأربعين أو زهائها . وتذكرت انه بدا لها في الكنيسة ، وقد دب اليه شيء من الصلع ، في نحو الرابعة والثلاثين او الخامسة والثلاثين . بيد انها ليست متأكدة من ذلك ، لأنها لم تجسر على ملء عينيها منه ، لشدة اضطرابها !

ولم يغمض لأرنستين جفن تلك الليلة ، فما كان قد خطر لها قط انها يمكن أن تشعر بكل هذا القدر من السعادة . ونهضت من فراشها كي تكتب في كراسة مذكراتها : « يجب الا أبدو أبدا آمرة أو متعالية . هذا عهد أقطعه على نفسي في ٣٠ سبتمبر عام ١٨٠٠ » . وقضت بقية الليل وهي تدير في نفسها تلك الفكرة التي اكتشفتها ، انه من المستحيل عليها أن تحب رجلا أقل من الأربعين . ثم راحت في خيالها تضيف الى مزية السن في صاحبها المجهول مزية أخرى تراءت لها من مظهره : انه فقير . ولكم أبهجها هذا الاكتشاف !

ونهضت مرة اخرى وأشعلت شمعتها وفتشت عن تقدير للثروة التي تخصها وكان أحد أبناء عمومتها قد سجل ذلك في احدى كراساتها ، وعثرت على الكراسة فوجدت انها تستحق عند الزواج ايرادا يبلغ سبعة عشر الفا في السنة، ومبلغ خمسين الفا نقدا . وشردت خواطرها في تأمل هذه الأمور ، حتى دقت ساعة القصر الرابعة صباحا ، فانتفضت متيقظة ، وتمنت أن يطلع النهار بسرعة كي تستطيع رؤية بلوطتها العزيزة .. ونهضت بعد قليل ففتحت مصراع نافذتها ، ورأت على البعد فعلا تلك الشجرة العملاقة بخضرتها القاتمة ، على ضوء

القمر ، لأن أنوار الفجر لم تكن قد بزغت بعد .

وحينما آن لها أن ترتدى ملابسها ، قالت لنفسها :

ـ لا يليق بمن يحبها رجل فى الأربعين أن ترتدى زيا لا يليق الا بطفلة !

وظلت زهاء ساعة تبحث فى خزاناتها عن ثوب وقبعة وحزام ،بدا منظرها فيها غير مألوف ، حتى انها عندما برزت الى قاعة الطعام أثارت ضحك عمها ومربيتها والضيف المسن عالم النبات . وقال عمها :

ـ اقتربى ياعزيزتى ارنستين ! أراك تبدين كما لو كنت تريدين التنكر فى زى امرأة فى الأربعين !

فاحمر وجهها ، وفاضت نفسها بالسعادة. وحرصت أن تكون حركاتها على المائدة جديرة ببنت الأربعين فعلا ... فهى تكلم الخدم بلهجة تفيض أمومة ووقارا ، الأمر الذى أضحك عمها الشيخ مرة أخرى . وراح معصديقه يداعبانها بسبب هذه « التقليعة » الجديدة .

وبصعوبة تخلصت بعد الطعام من صحبتهما وصعدت الى حجرتها لتطل من نافذتها على البلوطة . ولم يلبث أن حل محل السعادة الغامرة خاطر أقلق بالها : ترى ماذا ينبغى أن أصنع الآن كى أكسب تقديره ؟ انه لابد أن يكون رجلا صارما دقيق الموازين ، ولاشك اننىخليقة أن أسقط من نظره ان بدرت منى بادرة غير موفقة ، أو خطوة غير لائقة .

وفيما هى تفكر على هذا النحو ، لاحظت انحزامها تتدلى منه حلية من الجوهر الثمين كان عمها الشيخ قد قدمها اليها هدية فى يوم عيدها منذ أسبوعين . وقالت لها مربيتها انها غالية ، يصل ثمنها الى ألف

فرنك ، وهى من صنع جوهرى مشهور فى باريس اسمه « لورنسو » ، فاكفهر وجهها وأسرعت تنتزعها ، وهى تقول : « ماذا عساه يقول لو رآها تتدلى من حزامى ، وهو الرجل الفقير ؟ أى فساد ذوق من جانبى ؟ »

وبعد أن وارت الحلية فى خزانتها ، عادت تسأل نفسها مرة آخرى ماذا ينبغى عليها أن تصنع الآن كى تفوز بتقدير هذا الرجل الفقير الصارم الذكى ؟ وكانت احلام اليقظة هذه ، التى صورت لها ذلك المجهول فى الصورة التى تتمناها ، هى المرحلة الخامسة من مراحل الحب الحقيقى .

وكان أول ما هداها اليه تفكيرها أن تنقطع عن التوجه الى موضع البلوطة العتيقة ، خوفا من أن تبدر منها حركة تنم على طفولتها ، وتسقط اعتبارها فى نظر هذا الرجل الذى أصبح شغلها الشاغل فى الليل والنهار . ولكنها ألفت نفسها فى نحو الساعة الواحدة تتنزه مع مربيتها فى طريقهما المعتاد ، وغافلت المربية واقتربت من البلوطة وهى تطفر كالغزال ، وتكاد تطير فى الهواء ولا تمس ما تحت قدميها من العشب . وكادت تطير فرحا حين وجدت باقة صغيرة ناضرة ، ومعها ورقة كبيرة ، لا قصاصة صغيرة كسابقاتها ، وأسرعت عيناها تنظران فى ختام الرسالة عسى أن تجد توقيعا يعرفها بشخص ذلك المجهول ، فاذا به « فيليب استيزان » ، فسقطت الورقة والباقة معا من يدها ، واستولت عليها رجفة هائلة . فقد كان المسيو استيزان معروفا فى قصر الكونت س بأنه عشيق مدام دايسان ، وهى باريسية عظيمة الثراء ، عظيمة الأناقة ، كانت تأتى فى كل عام لتثير استنكار واستفظاع الاقليم الريفى بتمضيتها أربعة

أشهر فى قصرها الريفى بمفردها مع رجل ليس زوجها. وهى فضلا عن هذا أرملة جميلة ، وفى وسعها أن تتزوج المسيو استيزان هذا . وجميع هذه الأمور المؤسفة حقيقية ، وما أكثر ما كان يرويها ويعيبها الأشخاص الوقورون الذين كانوا يحضرون أحيانا لزيارة عم ارنستين الشيخ . فلا غرابة أن تنقلب سعادة ارنستين النقية الطاهرة التى استولت على قلبها البكر الى شقاء أليم ممض لا رجاء فيه فى لحظة واحدة ، وهتفت باكية مختنقة تعسة :

— يا للرجل القاسى ! لقد أراد أن يلهو بى ، وكأننى احدى فرائس صيده وقنصه ! ولعله أراد بهذا الخداع أن يجد فى النهاية قصة طريفة يسلى بها مدام دايسان! وأنا البلهاء كنت أحلم بالزواج منه ! يا لسذاجة الطفولة! ويا للمهانة والهوان !

وخرت ارنستين مغشيا عليها الى جوار الشجرة العتيقة ، التى ظلت كعبة آمالها ثلاثة أشهر سويا . وهناك عثرت عليها مربيتها ، وفى صحبتها عالم النبات المسن بعد نصف ساعة ، فاذا بها ملقاة ولا حراك لها .

وزاد الطين بلة انها عندما أفاقت ألفت عند قدميها رسالة استيزان ، مفتوحة من ناحية التوقيع ، بحيث يستطيع اى انسان أن يتبينه ، فنهضت قائمة بسرعة البرق ، ووضعت قدمها على الرسالة لتخفيها عن الأنظار.

وحاولت أن تفسر جهدها ما انتابها ، ثم أفلحت فى التقاط الرسالة واخفائها من غير أن يلحظ أحد ذلك . وظلت فترة طويلة عاجزة عن قراءة سطورها ، لأن مربيتها أجلستها لتستريح ، ولازمتها لتطمئن عليها . ونادى عالم النبات أحد العمال العاملين فى حقل قريب وأرسله

لاستدعاء العربة من القصر . ولـكى تتحاشى الخوض فى أسباب اغمائها تصنعت ارنستين العجز عن الكلام لشدة خورها ، ولصداع شديد اتخذته ذريعة لاستمرارها فى وضع منديلها على عينيها .

ووصلت العربة ، وما أن استقرت فيها حتى راحت تستعجل وصـــــولها الى القصر العتيق ، كى تخلو الى نفسها . وأسوأ ما كانت تعانى منه شعورها بالاحتقار لذاتها ، وكانت الرسالة المطوية فى يدها داخل المنديل تكاد تحرق أناملها . وهبط الليل أثناء الطريق الى القصر ، فتسنى لها فى العتمة أن تفتح عينيها من غير أن يلحظ أحد مغزى نظراتها ، وتطلعت من نافذة العربة فرأت النجوم اللامعة فى تلك الليلة الصافية الجميلة ، فأدخل منظرها شيئا من العزاء على نفسها المحزونة . وكان أول قرار اتخذته بينها وبين نفسها ألا تقرأ هذه الرسالة التى لم تطالع منها الا التوقيـــع ، بل ســـتحرقها متى وصلت الى القصر . واستطاعت بهذا القرار أن تدفع عن نفسها الشعور بالهوان والاحتقار ، لأن الجانب الآخر من نفسها كان يعلنها باسم الحب انها خليقة أن تجد فى الرسالة الطويلة تفسيرا معقولا مرضيـــا لعلاقة المسيو استيزان بمدام دايسان .

وما أن دخلت ارنستين الصالون حتى ألقت بالرسالة الى نيران المدفأة فعلا . وفى صباح اليوم التالى ، شرعت منذ الساعة الثامنة فى العزف بجد على البيانو ، وكانت قد أهملته طوال الشهرين الأخيرين . ثم تحولت بعـــد ذلك الى قراءة مستأنية فى كتاب كبير عن تاريخ فرنسا ، وطلبت من عالم النبات الشيخ أن يعطيها درسا خاصا فى التاريخ الطبيعى . وانبرى هذا العالم الطيب القلب

البسيط النفس لتدريسها بكل حماسة على امتداد خمسة عشر يوما ، وهو مبهور لشدة الاهتمام المفاجىء الذى لمسه لدى تلميذته !

أما هى فكان كل شيء فى احساسها لا معنى له ، فلا اكتراث حقيقى فى أعماقها بشيء من الأشياء ، وجميع الخواطر تفضى بها الى يأس مطبق . وكان عمها الشيخ مذعورا لهزال الذى دب اليها بسرعة . وعندما أصيبت بزكام عادى خيل للشـــيخ المسكين الذى تركزت كل اهتماماته فى الحياة فى هذه الصبية انها أصيبت بذات الصدر !

بل اعتقدت ارنستين ذلك أيضا ، ولأول مرة مزق حجاب يأسها المطبق بشيء من الأمل ، ولـكنه كان أملا أسود ، فى انها ستقضى نحبها بسرعة ، وتتخلص من شقائها المضنى . وانقضى شهر كامل وما من احساس لديها الا بألم عميق ، زاد من شدته عليها انه لا انتفاع لها ولا جدوى لديها من الحياة ، وان احتقارها لذاتها لايريد أن يتضاءل ، وليس لها من عزاء عما يكربها الا فى الاعتقاد بأنه ما من أحد فى العالم يستطيع أن يخمن ما دار بسريرتها وانتاب قلبها من لواعج الحب الخائب ، وان الرجل القاسى الذى طالما شغل قلبها وفكرها لايمكن أن يخمن عشر معشار ما أحست به نحوه . وهكذا لم تفتقر فى محنتها وكربها الى الشـــجاعة وهى تلقى الى نيران المدفأة رسالتين عرفت فى مظروفيهما خط يد ذلك الرجل .

وكانت قد آلت على نفسها ألا تنظر أبدا الى المرج الذى تتوسطه البلوطة العتيقة فيما وراء البحـــيرة الصغيرة ، فكانت وهى فى الصالون لا تنظر أبدا من

الشرفة التى تكشف لها عن هذا المنظر . وذات يوم ، بعد ستة أسابيع من حادث اغمائها ، خطر لعالم النبات الذى يعلمها التاريخ الطبيعى أن يلقنها درسا عن النباتات المائية ، فركب معها زورقا وأبحرا الى الجزء الضيق من البحيرة حيث تلتقى بالوادى . وفى طريقهما مارين بالزورق أمام البلوطة القت من طرف عينها بنظرة تكاد تكون لا ارادية ، عرفت منها انه لا أحد بقرب تلك الشجرة ، ولاحظت ان جزءا من لحائها الداكن قد تغير لونه الى اللون الرمادى الفاتح . وبعد ساعتين عاد بهما الزورق من الطريق نفسه ، وارتجفت حين تبينت ان ما ظنته تغيرا فى لحاء الشجرة انما هو لون سترة فيليب استيزان ، الذى كان جالسا على جذور البلوطة البارزة عن سطح الأرض ، وقد جمد فى مكانه حتى كأنه ميت ! ووجدت قلبها يقفز فى صدرها لهذا الخاطر ، وجزعت لاضطرابها ولكنها قالت فى نفسها لئن كان قد مات ، فما عليها بأس من التفكير فيه والاهتمام بأمره . وكان ذلك كافيا لمدة بضع دقائق كى تجد ذريعة للاستسلام لسلطان الحب الذى تجددت قوته بمجرد وقوع بصرها على شخص المحبوب عن بعد .

وأفزعها أن تجد شعورها على هذا النحو . وفى اليوم التالى ، حضر فى المساء قسيس الناحية وطلب الى الكونت أن يقرضه مجموعة الشهر من صحيفة «المونيتير» ، وذهب الخادم المسن لاحضار مجموعة الشهر كله من هذه الصحيفة ، وعندئذ قال الكونت للقس :

ـ عجبا لك ! هذه أول مرة تطلب فيها منى اقتراض هذه الصحيفة !

ـ ذلك ياسيدى الكونت ان مدام دايسان كانت

تقرضنى اياها طول مدة اقامتها هنا ، ولـكنها رحلت عنا منذ خمسة عشر يوما !

وكان لهـذه الـكلمة العـابرة وقع الزلازل فى قلب ارنستين ، حتى كاد يغشى عليها ، ووضعت يدها على قلبها وقالت :

ـ هكذا اذن مبلغ نجاحى فى نسيانه !

وفى هذه الأمسية عرفت ارنستين الابتسام لأول مرة منذ حادث اغمائها ، وقالت لنفسها :

ـ لقد بقى هاهنا فى الريفعلى مسافة مائة وخمسين فرسخا من باريس ، وترك مدام دايسان تسافر وحدها الى هناك !

وعادت الى ذهنها صـــــورته وهو جالس فى جمود التماثيل فوق جذور البلوطة . وكان كل عزائها منـذ شهر انها أصيبت بداء الصـدر الذى سيقضى عليهـا سريعا . أما الآن فقد شعرت ان من الأحوط ارتداء ملابس ثقيلة دفعا لغائلة البرد الذى أخـذ يخيم على الناحية مع بوادر الثلوج الأولى . لقـد عاد اليها حب الحياة ، ونشطت لديها غريزة المحافظة عليها .

واقترب عيد القديس ايبير ، حيث يقام فى القصر العشاء الكبير الوحيد على امتداد السنة ، ويدعى له أعيان الجيرة ... وأنزل بيانو ارنستين لهذا الغرض الى الصالون . وعندما فتحته وجـدت على أصـابعه قصاصة فيها هذا السطر :

ـ لا تطلقى صرخة عندما تلمحيننى !

وكانت الـكلمات من الايجاز بحيث قرأتها قبـل أن تتبين الخط .. ولولا انها سمعت من القس ماسمعت ،

لكانت خليقة ان تصعد الى حجرتها وتعتصم بها ، فلا تفارقها الا بعد انتهاء الحفلة . أما الآن ، فالوضع مختلف .

وبعد يومين أقيمت تلك المأدبة السنوية الكبرى فى عيد القديس ايبير . وكانت ارنستين على رأس المائدة فى مواجهة عمها الكبير ، وهى تلك الليلة آية فى الأناقة . وعن يمينها ويسارها قسوس الناحية وأعيانها من صغار النبلاء الذين راحوا يتحدثون عن مغامراتهم فى الحرب ، وفى الصيد ، بل وفى الحب ! ولكن أهم ماخاضوا فيه وأطنبوا فى الحديث عنه هو شجرة أنسابهم العريقة . وكان ذلك كله ثقيلا على قلب وارثة القصر التى كان وجهها الشاحب يضفى على ملامحها الجميلة سمة الازدراء والتعالى . ولذا شعر أولئك الثقلاء بالتهيب وهم يوجهون اليها الكلام . أما هى فكانت أبعد ما يمكن عن النزول بنفسها الى مستواهم !

وانقضت بداية العشاء من غير أن تلاحظ شيئا غير عادى ، وبدأت تتنفس الصعداء عندما التقت عيناها بعينى فلاح متقدم فى السن ، فى ثياب التابع الخاص لأحد عمد القرى التى تحف بشواطىء نهردراك ، فشعرت بتلك الحركة فى صدرها التى حدثت لها عند سماع كلمة القس منذ عدة ليال ، مع انها لم تتأكد من شىء ، فهذا الفلاح لا يشبه فى شىء فيليب ، ولكنها حين تجاسرت على النظر اليه كرة أخرى ، أيقنت انه فيليب ، وقد تخفى وتنكر بحيث غدا شديد القبح .

وقد آن الأوان كى نتحدث قليلا عن فيليب استبزان ، لأن تصرفاته تصرفات عاشق ، وقد نجد فى حكايته فرصة لاثبات نظرية مراحل الحب السبعة . . .

الفصل التاسع عشر :

فيليب

قبل تلك الليلة بخمسة أشهر حدث أن زار أحد القسوس قصر لافرى حيث تقيم مدام دايسان مع فيليب . وأثناء الحديث قال القسيس عبارة بارعة جدا ادهش فيليب صدورها عن مثل ذلك الرجل ، فسأله من الذى قال له هذه العبارة الجميلة ، فقال القس :

ـ انها ابنة أخ الكونت س ، وهى فتاة سترث ثروة كبيرة جدا ، ولكن تربيتها سيئة ! فلا تمضى سنة من غير أن تتلقى من باريس صندوقا كبيرا بهكتب ، وأخشى أن تنتهى بسبب هذه القراءة الدنيوية الكثيرة نهاية سيئة ، وألا تجد زوجا يقترن بها . فمنذا الذى يمكن أن يثقل كاهله بامرأة من هذا الطراز ؟..

ووجه اليه فيليب عندئذ عدة أسئلة ، ولم يستطع القس أن يكتمه انها رائعة الجمال ، وشفع ذلك بقوله ان ذلك سيكون من عوامل بوارها أو ضياعها ! ووصف له بصدق مدى السأم الذى يخيم على الحياة فى قصر الكونت ، حتى لقد صاحت مدام دايسان :

ـ كفى يا أبانا ! فسوف يؤدى كلامك هذا الى كراهيتى جبالكم الجميلة هذه !

ولكن فيليب كف عن الاصغاء لبقية الحديث الذى

اتصل بعد هذا بين ربة القصر وذلك القس ، لانشغاله بالتفكير فى ارنستين هذه ، وفيما يمكن أن يدور فى قلب فتاة مثلها شابة منعزلة فى قصر عتيق بلغ من سآمته وخامته ان القس الريفى نفسه يراه مملا مضجرا لايطاق العيش فيه !

وقال فيليب فى نفسه :

ـ لابد أن أسرى عن هذه الفتاة وأسليها ، ولأغازلنها باسلوب رومانسى طريف ، عسى أن أدخل على حياة هذه المسكينة شيئا من التجديد .

وفى اليوم التالى ذهب ليصطاد على مقربة من قصر الكونت س ، ولاحظ موضع الغابة الصغيرة ، التى لايفصلها عن أبراجه سوى البحيرة الصغيرة ، فخطر له أن يهدى باقة أزهار صغيرة الى ارنستين ...

وقد عرفنا من السياق فى الفصل السابق ما كان من أمر هذه الباقات والقصاصات . وكان عندما يذهب الى الصيد فى تلك البقعة يضعها بنفسه فى فجوة البلوطة العتيقة ، أما فى الأيام الأخرى ، التى لا يصطاد فيها هناك ، فكان يكلف بهذه المهمة خادمه الخاص .

وكان الدافع فى ذلك الحين لفيليب الى هذه التصرفات مجرد الرغبة فى القيام بعمل خيرى . ولم يفكر اطلاقا فى رؤية ارنستين ، فقد كان من الصعب جدا أن يقحم نفسه على عمها بزيارته ، ثم ان هذه الزيارة خليقة ان تكون مسئمة مضجرة لفيليب الى أقصى حد .

وعندما رأى ارنستين للمرة الأولى فى الكنيسة كان أول ما خطر له انه أكبر سنا من أن يروق فتاة صغيرة السن فى الثامنة عشرة أو العشرين من عمرها . وقد

اثر فيه جمال ملامحها ، واثر فيه اكثر من ذلك ما تتسم به من بساطة نبيلة تفيض من محياها وهيئتها بعامة ، وقال فى نفسه :

ـ أن فيها لبراءة وسذاجة !

وبعد لحظة استولى عليه الاحساس بأنها فتانة ساحرة . ولما رأى كتاب الصلوات يقع من يدها وهى تهم بمغادرة الأريكة الخشبية المخصصة لآل الكونت س فى مقدمة الصفوف ، ثم انحنت فى ارتباك واضح لالتقاطه ، خطر له حبها ، لأن الأمل فى الفوز بها داعب خياله . ولبث فى الكنيسة بعد خروجها ، غارقا فى تأملات غير سعيدة بالنسبة لرجل بدأ يساوره الحب ، فهو فى الخامسة والثلاثين ، وشعر رأسه بدأ يخف ، الأمر الذى يضيف الى عمره أربع سنوات أو خمسا ، وقال فى نفسه بحنكة العاشق المجرب :

ـ ان كان عمرى لم يخسر الجولة الأولى لديها ، فينبغى أن أجعلها تشنك فى ظفرها بقلبى كى تنسى تماما مسألة العمر !..

واقترب من نافذة قوطية صغيرة تطل على ساحة الكنيسة ، فرأى ارنستين تستقل العربة ، ورأى لها قامة فاتنة وقدما صغيرة بديعة ، وشاهدها توزع الصدقات على الفقراء ، وخيل اليه ان عينيها تبحثان عن شخص ما بين الناس ، ثم وراء جموعهم ، فقال لنفسه :

ـ ولماذا ترسل نظرتها الى بعيد ، مع انها توزع النقود على المحدقين بالعربة ؟ أترانى قد اثرت اهتمامها الى هذا الحد ؟

وأبصر ارنستين تكلف أحد خدمها بمهمة ، فانتشى في هذه اللحظة بجمالها ، ولاسيما عندما احمر وجهها ، لأن عينيه من وراء النافذة كانتا قريبتين منها لاقتراب العربة عند تحركها من موضعه ، ثم توقفت العربة انتظارا لعودة الخادم الذى رآه يدخل الكنيسة ويبحث عن شيء ما على الأريكة الخاصة بآل الكونت . وتأكد له في هذه الأثناء ان نظرات ارنستين تتجاوز قامة الناس من حول العربة ، بحثا عن أحد ، ولكن هذا الشخص يمكن ألا يكون فيليب استيزان ، الذى لعله فى نظر هذه الصبية الساذجة شيخ في الخمسين ــ حسب تقديرها ــ أو السنين ــ من يدرى ؟ وهل يعقل ان فتاة في مثل ثرائها الطائل وشبابها الناضر وجمالها الزاهر ليس لها من شبان الجيرة من يخطب ودها ، ويداعب قلبها ، أو يطلب يدها ؟ ولكنه راجع نفسه فى ذلك لأنه لم يلمح أحدا من هذا القبيل أثناء القداس .

وما أن غادرت عربة الكونت ساحة الكنيسة حتى امتطى استيزان صهوة جواده ، ودار دورة كبيرة في ممرات الغابة كي يتحاشى الالتقاء بالعربة فى بعض الطريق، ولما قدر انها وصلت الى القصر ، اتجه نحو المرج الذى تتوسط البلوطة بسرعة ، وسره كثيرا انه وصل الى هناك قبل ان تذهب ارنستين الى الشجرة ، وأسرع برفع الباقة التى كان قد وضعها خادمه كالعادة هناك، وأخذها الى الغابة ، حيث ربط جواده فى ظلماتها ، ونزل يتمشى على قدميه ، الى أن اهتدى الى أجمة تطل على البحيرة ، فتوارى بين أشجارها عن جميع العيون ، ولكن عينيه لم تفارقا البلوطة العتيقة وشاطىء البحيرة .

وكم كانت سعادته عندما ابصر بعد قليل ارنستين

قادمة بمفردها وهى تكاد تلهث من سرعة سيرها الذى يشبه الجرى ، فكانت هـذه اللحظة هى الحاسمة ! فانطبعت صورتها فى فؤاده . ومنذ هذه اللحظة صار لأرنستين ما يميزها فى عينيه من سائر النساء جميعا ، ولم يعد ينقصه كى يحبها حبا جنونيا الا الأمل. ورآها تقترب من البلوطة فى لهفة ، ورأى امارات الألم الشديد على وجهها عندما لم تجد الباقة . وكانت هذه اللحظة غاية فى اللذة لديه ، وغاية فى الحدة . وأخذ يقـارن بين صورتها عندئذ وهى تبتعد ثقيلة الخطا أسـيفة المحيا ، وبين صورتها فى الـكنيسـة وقد فاض وجهها باليقظة والتوثب والحياء فى آن واحد ، فتجلى جمالها وشبابها على أحسن حال ، ولمعت بالأمل عيناها .

ولما اختفت عن ناظريه آخرج فيليب من مكمنه وقد غدا رجلاآخر غير الذى كانه قبل قدومها . وتنازعته فكرتان ،وهو يعود على صهوة جواده ركضا الى قصر مدام دايسنان : أتراها حقا حزنت أم خدعتنى عيناى عندما لم تجد باقة الزهر فى موضعها من فجوة البلوطة؟ وهل هذا الحزن لخيبة أملها فى الحب أم لجرح أصاب كبرياءها ؟. . وتغلب الاحتمال الأخير عليه ، لأنه اليق بتفكير رجل فى الخامسة والثلاثين من عمره يأخذ الأمور مأخذ الجد ، وأسلمه ذلك الى الوجوم .

ووجد اناسا كثيرين عند مدام دايسان ، ومازحته عشيقته أثناء السهرة سـاخرة من حـده ووجومه . ولاحظت انه كلما مر أمام مرآة من المرايا الكثيرة المبثوثة فى الصالون ، لم يتمالك نفسه من النظر الى سحنته بامعان ، وقالت له مداعبة :

ــ وأنا أبغض أشد البغض هذه العادة الفاشية فى

الشبان ، وكنت خاليا من هذه الخصلة ، فحاول أن تقلع عنها ، والا عاقبتك بنزع جميع المرايا من مواضعها!

وارتبك فيليب ، ولم يدر كيف يدارى شرود ذهنه. والواقع انه كان يستنطق المرايا عن رايها فى سحنته ، وهل يبدو حقا متقدما فى السن .

وفى اليوم التالى اتخذ موضعه فى ذلك المكمن الذى أشرنا اليه ، والذى يبدو للمختبىء فيه منظر البحيرة بوضوح تام ، وحرص على أن يحمل معه منظارا . ولم يبرح مكانه هذا الا بعد أن خيم الليل . وفى اليوم الذى بعده أتى معه الى ذلك المكمن بكتاب ، ولكنه لم يعرف شيئا مما قراه فى صفحاته . وأخيرا ، قرب الساعة الثالثة ، كاد قلبه يثب من صدره عندما أبصر ارنستين تقترب ببطء من الممشى المفضى الى البحيرة ، وتأخذ طريقها بعد ذلك الى المرج وعلى رأسها قبعة كبيرة من القش الايطالى .

ودنت أخيرا من البلوطة العتيقة ، وهى واجمة ، وابصرها تأخذ بيدها الباقتين الصغيرتين اللتين كان قد اتى بهما فى ذلك الصباح ، ووضعتهما فى منديلها ، ثم اختفت عن الأنظار بسرعة البرق . فأتم هذا السلوك البسيط البرىء الساذج أسر فؤاده ، وان كانت سرعتها لم تمكنه من تبين أسارير محياها ، وهل فارقها الوجوم ولمعت عيناها أم لا .

وتساءل ماذا عساها ستفعل بالباقتين . هل ستريهما لمربيتها ؟ انها ان أقدمت على هذا كانت مجرد طفلة . وليكونن أشد طفولة منها ان واصل الاهتمام الى هذا الحد بصبية مثلها . وقال فى نفسه :

ــ من حسن الحظ انها لا تعرف اسمى ، وأنا وحدى

الذى أعرف جنونى وطيشى !

وغادر فيليب مخبأه وهو مطرق ، لايدرى ماذا كان من أمر ارنستين ، ولكن رجح لديه أن تكون قد تصرفت كما توهم ، وأخذ يؤنب نفسه على اهتمامه بمثل هذه الطفلة . واكتسى وجهه بالصرامة والجد وهو يهبط عن صهوة جواده فى فناء قصر مدام دابسان ، فمن يراه يدرك انه لم يعد ذلك العاشق الذى كانه فى الصباح .

وفى اليوم التالى قال لنفسه انها لبلاهة أن يقطع مثله ثلاثة فراسخ كى يرقب تصرفات تلك الطفلة . ثم لم يلبث أن تساءل :

ــ ولـكنها بلاهة فى نظر من ؟ لا احد سواى يعرف الحقيقة . ولا ينبغى أن ينكص الرجل العاقل عن تجربة حظه !

وهكذا جلس فكتب رسالة طويلة جدا ، كشف فى نهايتها عن اسمه . وكانت رســالة جيــدة التحرير والتحبير . وهى الرسالة التى كان مصيرها الالقاء بدون قراءة فىنيرانالمدفأة ، كما يذكرالقارىء ، لمجرد صدورها عن رجل له هذا الاسم ، وكان فيليب مختبئا فى مكمنه المعتاد عندما أحدث اسمه هذا التأثير المروع فى نفس ارنستين ، ورآها تصــاب بالاغماء ، فاســتولت عليه دهشة بالغة !

وفى الغد ، اضطر الى الاعتراف لنفسه بأنه عاشق ! فتصرفاته كلها كانت دليلا على هذا . وصار يذهب كل يوم الى الغابة الصغيرة ، التى كانت مسرحا لأحاسيسه الحادة . ولما كانت مدام دابسان وشيكة العودة الى باريس ، تفتق ذهنه عن حيلة بارعة ، اذ زعم انه تلقى خطابا من أسرته تخبره بمرض عم له مسن ، فلابد له

اذن من الذهاب للاقامة عنده بعض الوقت فى برغنديا.
وركب عربة البريد فى يوم رحيل مدام دايسان ، متجها الى برغنديا ، ولكنه غادرها بعد عدة فراسخ ، وعاد من طريق آخر ، واستقر فى نزل على مسافة فرسخين من قصر الكونت س . وهكذا لم ينقض سوى يوم واحد لم يذهب فيه الى الغابة الصغيرة ... وصار يذهب كل يوم الى شاطىء البحيرة ، وواظب على ذلك ثلاثة وثلاثين يوما على التوالى ، من غير أن يظفر برؤية ارنستين . فهى قد انقطعت أيضا عن الذهاب الى الكنيسة ، وصارت تقيم الصلاة فى القصر . فعمد الى الاقتراب من القصر متنكرا وظفر برؤيتها مرتين ، وفى كل مرةكان يجد لمرآها رجفة ، ولمحياها النبيل البسيط هيبة وجلالا ، وجعل يقول لنفسه :

ـ لعمرى لن أشبع من قرب امرأة كهذه !

وكانأكبرما أثر فىفيليب شدة شحوب وجه أرنستين وما يبدو عليها من الضنى . وأخيرا استقر رأيه على أن يستجلى موقفها منه ، وانه لابد لهذا أن يدخل قصرها. ولما آنس فى نفسه التهيب من تلك الفكرة ، زجر نفسه ، فما يليق الخجل والتهيب برجل فى الخامسة والثلاثين من عمره .

وكان مشروع فيليب خليقا أن يصاب بالحبوط التام، لولا تلك الكلمة العارضة التى بدت على مسمع من ارنستين ، من أن مدام دايسان رحلت وحدها منذ زمن، فتفتح قلبها لحبه وتغلبعلىما فىنفسها منالغضبعليه .

ورضى صديق له من عمد القرى كان يصاحبه فى الصيد أن يأخذه الى مأدبة القصر فى زى تابع له. وهناك كما يعلم القارىء وقع بصر ارنستين عليه . فلما عرفته

احمر وجهها احمرارا شديدا . لامت نفسها عليه ، لأنها خشيت أن يظن بها الخفة ، وعندئذ ينفض يده منها ، ويعود الى عشيقته فى باريس ، لأنه وجدها غير جديرة بحب رجل مثله .

وزودتها هذه الفكرة القاسية بالشجاعة اللازمة كى تغادر المائدة وتصعد الى حجرتها . ولم تمض عليها هناك دقيقتان حتى سمعت باب حجرة الانتظار فى جناحها يفتح ، فسبق الى ظنها انها مربيتها ، فنهضت وهى تفكر فى ذريعة تصرفها بها . وبينما هى تتقدم نحو باب حجرتها ، اذا بهذا الباب يفتح ، ودخل منه فيليب فجثا عند قدميها :

ـ أناشدك الله أن تغفرى لى جرأتى ؛ فأنا أتخبط فى ظلمات اليأس منذ شهرين . أتقبليننى زوجا ؟

وكانت لحظة رائعة لأرنستين ، التى قالت فى نفسها :

ـ انه يطلب الزواج منى ، فلا ينبغى اذن أن أخشى مدام دايسان .

وبحثت فى ذهنها عن جواب صارم ، ولكنها لم تجده . فقد انقضى عليها شهران وهى فى جحيم العذاب ، وها هى السعادة تغمرها فجأة ، وترفعها الى الذرى . ومن حسن الحظ ان باب حجرة الانتظار فتح فى تلك اللحظة ، فلما سمعت ارنستين الصوت قالت له :

ـ لقد لوثت سمعتى وشرفى !

فهمس لها فى هدوء :

ـ لا تبوحى بشىء . اثبتى !

وأسرع بمهارة شديدة فاختفى خلف فراش ارنستين وراء ستائره الثقيلة لصق الحائط .

وكان هذا الوقت فرصة كافية كى تسترد ارنستين هدوءها ، وتضبط انفعالاتها وتتعود السعادة التى

دهمتها على حين غرة . واستطاعت أن تجيبه جوابا لائقا رائعا عندما برز من كلمته ، فصرفته من حجرتها بأنفة شديدة ، جعلته يخال كل ما كان موقنا منه مجرد وهم ، لأنها قالت له ان جميع أشغاله ، ومشاغله ، وعواطفه ، موجودة فى باريس لا فى هذه البقعة من الريف ! وانه يحسن به أن يعجل بالذهاب الى هناك ! فأسرع يقول لها ان كل ما يشغله انما هو الظفر بقلبها ، وانه لن يبرح هذه الناحية ما دامت موجودة فيها .

وفى اليوم التالى ذهبت الى مكان البلوطة العتيقة ، فى صحبة مربيتها ومعلمها الشيخ عالم النبات ، وهناك وجدت باقة وقصاصة . وبعد ثمانية أيام من المحاولات المتكررة ، كاد يقنعها بالرد على رسائله ، واذا بها تعلم بعودة مدام دايسان من باريس ، فاستولى عليها قلق شديد ، فقد ذكرت لها بعض سيدات الناحية من أعيان الفلاحين انها جاءت لتسترد عشيقها الذى قيل انه عزم على الترهب ، وانه لهذا السبب اعتزل الناس فى هذه البقعة. وان ذلك القرار منه أطار صواب مدام دايسان.

وعرفت أرنستين بعد بضع أيام أن مدام دايسان لم تتمكن قط من مقابلة فيليب ، فعادت غاضبة الى باريس . وكان فيليب شبه مجنون فى هذه المدة التى لزمت فيها ارنستين الصمت الى أن تأكدت من الحقيقة، وزاد ولعه بها ، وقد حسب انها لا تحبه . وحاول كثيرا أن يتعقب خطواتها ، ولكنها عاملته بجفاف رده على اعقابه ، حتى لقد حاول الرحيل يائسا ومتنازلا عن حبه الفاشل ، ولكنه عاد من منتصف الطريق أدراجه .

وبانجلاء الموقف نمت حلقات ميلاد حب جارف فى قلب ارنستين ، وفى قلب فيليب .

الفصل العشرون :

نماذج من الحب لدى الطبقة الثرية فى فرنسا

كتب الى صديقى جونسيلان الرسالة التالية ، أنشرها كما هى :

مدام « فيليسى فيلين » فرنسية شابة فى الخامسة والعشرين من عمرها ، لها أراض شاسعة بديعة وقصر حصين بديع فى برغنديا . أما هى فقبيحة ، ولكنها ممشوقة القد ومزاجها عصبى لمفاوى . وهى أبعد ما تكون عن البلاهة ، ولكنها ليست ذات روح متوقد ، ولم تصادف فى حياتها فكرة واحدة قوية أخاذة تستولى على نفسها . ولما كانت قد تربت على يد أم ذكية ، وفى مجتمع راق جدا ، فهى شديدة البراعة والدهاء ، ولديها « منوال » تنسج عليه فى تفكيرها وأقوالها ، مرددة على الدوام عبارات الآخرين ، وباتقان شديد يوحى بأنها صاحبة هذه الآراء ! بل انها وهى تلقيها تتصنع دهشة الابداع والارتجال . ولذا تبدو فى نظر من لم يروها الا مرات قليلة ، أو فى محيط محدودى الذهن المحدقين بها ، فى صورة المرأة المتوقدة الذهن !

ولها فى الموسيقى نفس مواهبها فى الحديث ، فكانت وهى فى السابعة عشرة تتقن العزف على البيانو ، بحيث كان فى مقدورها لو شاءت ان تعطى دروسا فى البيانو

مقابل ثمانية فرنكات فى الساعة . ولكن ثروتها الطائلة لم تحوجها الى شىء من هذا بالطبع . وكانت اذا ذهبت الى احدى أوبرات روسينى ، استطاعت فى الغداة أن تتذكر نصف ألحانها على الأقل ، وتعزفها على البيانو . واذا وضعت أمامها مقطوعة جديدة لم ترها من قبل ، عزفتها على الفور باتقان محمود مهما كانت صعوبتها . ولكنها مع هذا « لا تفهم » المعزوفات الصعبة العميقة وان استطاعت أداءها . وهذا أيضا هو عين مستواها فى القراءة . لا تفهم الأفكار العميقة ، ولكنها تتقن أداءها والقاءها !..

وقد استأجرت معلما فى الهارمونى ذائع الشهرة فى المانيا ، ولكنها لم تستطع أن تفهم منه كلمة! أما الرسم، ونقل اللوحات ، وتصور الأزهار بالألوان ، فقد برعت فى هذا كله وتفوقت على أساتذتها فيه ، بشرط ان تكون اللوحات الأصلية أمام عينيها ! ولكن اذا كان فى هذه اللوحات منظور بعيد المدى ، أو معقد ، لم تفهمه ، وان أحسنت نقله !

وعدم البراعة فى فهم الأمور الصعبة أو العميقة سمة من سمات المرأة الفرنسية ، فمتى وجدت شيئا غير سهل المأخذ استولى عليها السأم .

وفى سن الثامنة عشرة تزوجت مدام فيلين زواج مصلحة وتقاليد ، من شاب طيب فى الثلاثين من عمره ، مزاجه خليط من اللمفاوى والدموى ، مفرط الطموح والعصبية ، طيب القلب ، دمث ، وفيه فدامة تشبه الغباء . ولم أر فى حياتى رجلا يضاهيه فى التجرد التام من اللماحية والألمعية ! ولكنه مع هذا نجح نجاحا كبيرا فى دراساته بمدرسة البوليتكنيك ، حيث عرفته ،

وتحدث الناس عن مزاياه فى المجتمع الذى تربت فيه فيليسى ، مع انه لايحسن شيئا سوى ادارة مناجمه ومصاهره بتفوق وامتياز .
وقد احتفى بزوجته الشابة ما وسعه الاحتفاء ، ولكنها كانت كائنا ثلجيا لا يجدى معها شىء ! ولم يدم لديها الا ثمانية أيام ذلك النوع من العرفان الحنون الذى يلهمه الأزواج عادة لأقل الفتيات اكتراثا بهذه الأمور .

واكتشفت من عشرتها له انه فى الخلوات شديد الفدامة وثقل الظل ، وانه فى المجتمعات يبدو بفدامته سخيفا مضحكا ، ولكن أسعدها انها تزوجت من رجل طائل الثراء ، وان الأوساط العملية تتحدث عن قدراته ومزاياه ، فكانت تعد ذلك تهنئة خاصة لها ! ومع هذا كانت تعامله باعراض . ولما كان نسبه أقل رقيا من نسبها الرفيع، توهم انها تعامله بترفع الدوقات ، فأسرع بالابتعاد عن جوارها. ولما كان رجلا كثير الأشغال جدا ، وليس صعب المراس ، لم يكن شىء أحب اليه أو أروح لخاطره من الجلوس قليلا الى امرأته فيما بين مراجعة تقارير الحسابات ورؤساء العمال وتجربة الآلات الجديدة، وعندئذ يحلو له بعض الشىء أن يغازلها قليلا . ولكن ذلك قلب تباعدها عنه الى نفور ، لأنه كان يقدم على مغازلتها أمام آخرين من الزوار ، ومنهم أنا شخصيا ، فيبدو فى تصرفه ذلك قليل الكياسة فاسد الذوق مبتذلا عامى السلوك .

واعتقد انى كنت خليقا أن أصفعه او انه فعل ذلك امامى مع امرأة أخرى . وكنت الاحظ على فيليسى جفافا شديدا فى الروح، وافتقارا تاما الى الحساسية الحقيقية. وكثيرا ما كان صبرى ينفد لشدة غرورها . ولذا كنت

أراها تعانى بسبب غرورها هذا من تصرفات زوجها السمجة .

ومضت الحياة على هذا الحال بتلك الأسرة زمنا ـ فهى لم تنجب أطفالا قط ـ وطوال تلك الفتره كان الزوج يعيش فى صحبة طيبة عندما يكون فى باريس (فهو لم يكن يمضى أكثر من سته أسابيع من الصيف فى مصانع الحديد التى يملكها ببرغنديا) ولذا اقتدى بتلك البيئه وتحسن نوعا ما . مع بقائه قدما سمجا فى صميمه ، ولكنه لم يعد مضحكا ، ونجح نجاحا هائلا فى أعماله ، بدليل الممتلكات الواسعة التى اشتراها بعد زواجه ، والشهادات التى حصل عليها فى معرض المصنوعات الوطنية الفرنسية .

والآن زوجته صدته ، اعتقد انه عاشق لها حقا ، وكان اعتقاده هذا بحسن نية ، وكانت هى تسوسه وتشعل عواطفه بحنكة ، فتقول له أعذب العبارات وأرقها علنا ، ثم تجد الذرائع والتعلات لصده فى الخلوة ، وبذلك زادت من رغبته فيها .. وحينما تتنازل أخيرا وتسمح له ان .... كان يدفع كل فواتير المنجدين ، والخياطين والصياغ الباهظة ، ويجدها مع هذا معتدلة جدا فى نفقاتها !

وحتى سن العشرين أو الحادية والعشرين (أى فى السنتين أو الثلاث الاولى من الزواج) لم تكن فيليسى تنشد اللذة الا فى المباهج التالية :

* أن تكون صاحبة أجمل الأثواب بين سائر نساء المجتمع الشابات .

* ان تتلقى أعظم وأغزر التهانى والثناء على عزفها المنفرد على البيانو .

* أن تبدو أذكى وأصفى قريحة من سـائر نساء المجتمع .

ولـكن فى سن الحادية والعشرين بدأ لديها ما يسمى « غرور العواطف » .

وكانت قد تربت على يد أم ملحدة ، وفى بيئة من الفلاسفة الملحدين . فلم تذهب الى الكنيسة الا مرة واحدة فحسب ، كى يعقد قرانها ، وكان ذلك على مضض منها . وراحت منذ زواجهـا تطـالع كل ألوان الكتب ، ووقعت فى يدها كتب روسو ومدام دى ستايل . وانها لـكتب خطرة .

وكان « اميل » أول ما قرأت ، وبعـد الفراغ منه اعتقدت ان لها كل الحق فى احتقار عقلية من تعرفهن من الشابات ، مع انها لم تفقه كلمة واحدة من ميتافيزيقا قس سافوا . ولـكن عبارات روسو متقنة الصياغة ، مرهفة المعانى والمرامى ، ومن الصعب حفظها . فاكتفت بالتظاهر ببعض التدين ، كى تحدث تأثيرا بالاختـلاف والمباينة فى بيئة لا تدين فيها على الاطلاق .

وقرأت « كورين » ، وأعادت قراءتها مرارا ، ففى هذه الرواية عبارات ذات رنين يسهل حفظها . وقـد حفظت منها عددا لابأس به . وكانت تتخير للأمسيات فى صالونها شبانا غير مثقفين ، وليست فيهم فطنة ، فتعيد على مسامعهم ما حفظته فى درس الصباح ! وكان فريق منهم يؤخذ ويظنونها امرأة متوقدة الأحاسيس ، فوجهوا الى مخاطبة مشاعرها الرقيقة كل عنايتهم ! ولـكنها كانت حريصة ألا تنتهج هـذه الخطة الا مع البلهاء من الشبان الذين يرتادون صالونها ، خشية أن يسخر الفطنون الأذكياء منها . أما الزوج فكان مشغولا

خارج البيت فى معظم الأحيان ، ثم هو رجل طيب ، فلم يلاحظ شيئا ، ولم يشغل باله بتلك الفندرة الفكرية .

وقرأت فيليسى « الويز الجديدة » . ، فاكتشفت فى روحها كنوزا من الحساسية ، وأفضت بذلك الى أمها الى خال مسن كان لها بمثابة الأب ، فسخرا منها سخريتهما من طفلة . ولكنها لم تستطع أن تقتلع من ذهنها ان الحياة لا تستقيم بغير عشيق ، وعشيق من طراز « سان برى » Saint - Preux بطل هذه الرواية .

وكان فى بيئتها سويدى شاب ، وهو رجل غريب الأطوار . تخرج فى الجامعة وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، فانخرط فى سلك الجندية واتى بأعمال باهرة فى معارك عام ١٨١٢ ، وحصل على مرتبة رفيعة فى قوات بلاده المسلحة ، ثم رحل الى أمريكا حيث عاش ستة أشهر بين عشائر الهنود الحمر . وهو ليس غبيا ولا متوقد القريحة ، الا آن له شخصية قوية وخلقا متينا، وفيه جوانب كثيرة تدل على الفضيلة وسمو النفس . بيد انه أشد من عرفت من الرجال لمقاومة فى طبعه ، بالاضافة الى شكل وسيم وقامة جميلة وبساطة فى السلوك الذى يتسم بالمهابة والوقار الشديد فى الوقت نفسه . ومن ثم كان موضع الحفاوة والتقرير العظيم فى كل مكان يحل فيه .

فقالت فيليسى فى نفسها :

ــ هاهو الرجل الذى ينبغى أن أتظاهر بأنه عشيقى، ولما كان أبرد الرجال عاطفة ، فتعلقه بى خليق أن يتيح لى أعظم نصيب من الاطراء !

وكان هذا السويدى ــ واسمه فايلبرج ــ صديق

حميم للأسرة ، وقبل هذا التاريخ بخمس سنوات كان قد اشترك مع الزوج فى احدى الرحلات . ولما كان رجلا شديد الصرامة فى طباعه وخلقه ، ولم يكن عاشـــقا لفيليسي على الاطلاق ، لذا كان يراها على حقيقتـــها الواقعية ، أى يراها قبيحة جدا . ولم تكن لديه فكرة سابقة عما يراد به فى تلك الرحلة . وأما الزوج فـكان شديد الضيق بتلك الأجواء الغريبة عليه ويتلهف على فرصة للتخلص من سفر لم يقدم عليه الا ارضـــاء لزوجته ، كى يتفرغ لأعماله الـكثيرة ، لذا تركها عند أول مرحلة وعاد أدراجه للمرور على المناجم والمصانع فى المناطق المجاورة ، قائلا لفايلبرج :

ــ سأترك زوجتى فى رعايتك ياجوستاف !

وفايلبرج لايتكلم الفرنسية الا بصعوبة شديدة ، ولم يطالع قط روسو ولا مدام دى ستايل ، فكـانت هذه فرصة بديعة لفيليسى كى تمارس فيه ثقافتها المنتحلة وبديهتها المستوحاة .

وتصنعت المرأة الشابة المرض كى تثير شفقة الشاب الطيب القلب الذى كانت تنجح معه دائما حين تخلو اليه فى جلساتها . ولـكى ترقق قلبه حدثته عن الحب الذى تحسه دائما نحو زوجها ، وعن أساها وشجونها لأن هذا الزوج لا يستجيب لحبها ولا يبادلها اياه !

ولم يكن هذا « اللون » يروق فايلبرج ، الذى كان يصغى له بدافع التهذيب فحسب . بيد أنها خالت انها أحرزت معه تقدما ملحوظا ، فشرعت تحدثه عن التعاطف الذى نشأ فيما بينهما ، فتناول جوستاف قبعته وخرج يتنزه سائرا على قدميه .

ولما عاد اظهرت غضبها منه ، وقالت له أنه أهانها اذ اعتبر كلمة المجاملة والترحيب التى صارحته بها وكأنها اعلان حب .

وفى الليل ، عندما خرجا للنزهة فى العربة ، وضعت راسها على كتف جوستاف ، الذى تحامل على نفسه ليتحمل هذا العبء ، من باب التهذيب فحسب .

واستمرت أسفارهما وجولاتهما على هذا النحو شهرين ، انفقت فيها أموالا طائلة ، وكانت تمثل فيه دور العاشقة وكان هو فريسة للملل لا حد له !

ولما عادا من الرحلة ، غيرت فيليسى من عاداتها جميعا ، ولو كان فى مستطاعها أن ترسل « اخطارات » لبعثت بها الى جميع أصدقائها ومعارفها تعلمهم انها متيمة بحب المسيو فايلبرج السويدى ، وانه قدصار عشيقها !

لقد كفت عن غشيان المراقص واقامتها ، وكفت عن الظهور فى المجتمعات ، وأهملت كل أصدقائها القدامى. أى انها بايجاز ضحت بكل ما تميل اليه كى توحىللجميع الاعتقاد بأنها غارقة فى حب المسيو فايلبرج الذى عاش مع الهنود الحمر المتوحشين ، وحصل على رتبة الكولونيل فى الجيش السويدى وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، وان هذا الرجل مجنون بها أيضا .

وبدا بالايعاز بذلك الى والدتها منذ يوم وصولها ، فهذه الأم — فى نظرها — قد زوجتها من رجل لم تكن تحبه ، فينبغى عليها الآن أن يؤيد بكل قواها ووسائلها حبها للرجل الذى وقع عليه اختيارها ، والذى تحبه حب العبادة . ويجب عليها أن تجد الذريعة لاقناع

الزوج بدعوة هـذا العشيق الى الاقامة المستقرة فى البيت ، فما لم تجده باستمرار لديها فى بيتها . فهى خليقة أن تذهب للاجتماع به كل يوم فى مسكنه الخاص!

وصدقت الأم هذا كله ، وبذلت كل جهدها مع زوج ابنتها لتقنعه بأن فايلبرج لا ينبغى أن يكون له بيت سوى بيته هو وابنتها . وهكذا شرع شارل (الزوج) يلح على جوستاف الحاحا متواصلا ، وراحت الأم تترضـــــاه وتتقرب اليه ، بحيث أحرج الشاب السويدى المسكين ، فهو لايدرى ما يبيت له ولا ما يراد منه ، ويخشى أن يفرط فى الاساءة بالرفض الى اناس يظهرون له كل هذا الود والترحاب ، وراودته نفسه على الكف عن التأبى عليهم .

والنساء فى استطاعتهن البكاء متى شئن ، كما تعلم ..

ففى ذات يوم ، وأنا فى زيارة فيليسى ، شرعت تبكى بدمع مدرار ، وضغطت على يدى بشدة وهى تقول :

ـ آه أيها الصديق العزيز ! لقد أحسنت صداقتك المخلصة استبصار ما يدور بقلبى ! فقد كنت فيما مضى على خير علاقة مع جوستاف قبل رحلتنا ، ولكنك بعد هذه الرحلة تغيرت كثيرا . حتى لكأنك تكن له البغض والحقد (ولم يكن هـذا صحيحا إطلاقا ، فأنا أدرى بالحقيقة) آه ياصديقى ! أما أنا فلم أكن سعيدة فيما قبل الرحلة ، أما منذ بدأت الرحلة ... وآه لو تدرى كل أنواع التصرفات الهمجية التى بدرت من جوستاف أثناءها ! آه لو عرفت جوستاف على حقيقته ! وأى رقة وأى عذوبة طائشة جارفة يتسم بها هواه لى ! فهل كان فى مقدورى أن أقاوم مثل هـــذا الحب الوحشى الضارى! آه لوعرفت روحه النارية ، وعواطفه الملتهبة،

التى تختفى تحت مظهره البارد برودة الثلج ! وأنا أدرى الناس بما ينقصنى ، وبأن سعادتى الغامرة هذه ليست صافية كل الصفاء ، لأنى أعرف واجبى نحو شارل زوجي ! ولكن اعذرنى ياصديقى ، وانا حائرة بين عدم مبالاة أحدهما وفتوره وازدرائه ، وبين اهتمام الآخر وعنايته وحبه المشتعل كالنار . ثم تذكر تلك الألفة والمخالطة المستمرة الاجبارية التى تفرضها حياة السفر والارتحال بمفردنا معا.. معانى ذلك من مخاطر ومزالق. فهل كان بوسعى أن أقاوم كل هذا الحب ؟ ثم هل كان بوسعى أن أقاوم هجماته العنيفة التى لم يتورع عن شنها على جسدى المحروم ؟

وهكذا صار فايلبرج الذى لا يقل نقاء وبراءة عن سيدنا يوسف ، متهما باغتصاب زوجة صديقة عنوة . وكان لابد للناس من تصديق ذلك ، لأنها هى التى تروى تلك الوقائع ! وقد تفاخرت بذلك لصديقين أعرفهما ، ولابد انها تفاخرت به لغيرهما ممن لا أعرفهم شخصيا.

ولم يفت فيلبسى بعد الافضاء باعترافها هذا لى ان تمد لى يدها وتقول لى انها تعتمد على شهامتى فى عدم افشاء سرها لأحد ، وفى أن تعود صلاتى بفايلبرج كما كانت من قبل ، وأن أتصنع عدم علمى بأى شىء ، لأن اخلاق هذا المتوحش السويدى تخيفها ، حتى انها كلما فارقها تخشى أن يدفعه تأنيب الضمير الى الاقلاع عائدا لبلاده ، وقد أصبحت لا صبر لها على بعده يوما واحدا بعد ذلك الاغتصاب الوحشى الذى أيقظ حواسها التى كانت نائمة !..

وطبيعى ان جميع أصدقاء الأسرة استنكروا اقدام فايلبرج على اغواء الزوجة الشابة ، وهى ربة البيت التى

رحبت به وأكرمت وفادته ، وامرأة الزوج الذى أدى له خدمات كثيرة جليلة ووثق به . وعجبوا كيف حدث هذا من الرجل الذى كانت استقامته حتى الآن مضرب الأمثال .

ووجـدت من واجبى أن أخبر فايلبرج بكل شىء ، وبالدور الذى أجبر على الظهور به ، فعانقنى شـاكرا وأقسم لى الا تطأ قدماه ذلك البيت بعد الآن وروى لى كل تفاصيل الرحلة التى أضجرته وتحمل فيها صحبة هذه السيدة على سبيل التهذيب والتأدب فحسب .

ولما حرمت فيليسى من حضوره لديها للعشاء كل ليلة كسابق العهد ، تصنعت الحزن واليأس ، وزعمت ان زوجها ولاشك هو الذى طرده . وكانت قد ذكرت لى ولصديقين آخرين على الأقل التفصيـلات المزعومة لاغتصابه اليها على العشب الندى فى ظل شجرة سامقة فى احدى الغابات المنعزلة ، مستغلا ضعفها وانفراده بها فى هذه البقعة الرومانتيكية الموحشة !

وأوصت صانع سكاكين ماهر أن يعد لها خنجرا حاد النصل ، جعلته يحضره اليها وهى على مائدة العشاء ، وقد رأيتها تؤدى ثمنه أربعين فرنكا ، وتغلق عليه درج مكتبها الصغير . كما أحضر غلمان لا يقلون عن العشرة ، يعملون فى صيدليات شتى ، قوارير صغيرة من شراب الأفيون ، بحيث تشكل هذه القوارير مجتمعة كمية كبيرة من ذلك السائل الخطير ، وقد أخفتها أيضا فى دولاب زينتها .

وفى اليوم التالى أوعزت الى أمها انها ما لم تحضر اليها جوستاف فسوف تتجرع كل هذا الأفيون لتفقد الحس بالألم ، ثم تطعن نفسها بالخنجر . وخشيت الأم

أن تنفذ وعيدها فتحدث فضيحة لها دوى ، فذهبت الى فايلبرج ، وقالت له ان ابنتها وصلت الى مرحلة الجنون بسبب انقطاعه عنها ، وانها تزعم للناس انه أيضا يحبها ، وتهدد بالانتحار ما لم يعد اليها ، ورجته أن يعود ، ويعاملها بالتحقير الشديد والمهانة كى تمقته ، ثم لا عليه بعد ذلك أن ينقطع عنها نهائيا .

وكان فايلبرج فتى شهما ، فأشفق على الأم العجوز ، ووافق على القيام بهذه التمثيلية أو المهزلة ، كى يتجنب دوى الفضيحة التى تخشاها الأم .

وعاد فعلا . ولم تفاتحه المرأة الشابة فى شىء ، واكتفت بشىء من العتب الودى اللطيف لأنه تخلف عن الحضور هذه الأيام الخمسة . وقد تعلمت منذ حاولت أول مرة اعلانه بحبها فتناول قبعته وخرج للنزهة ، أقول انها وعت هذا الدرس ، فلم تكن تفاتحه أبدا وهما وحدهما معا فى موضوع الحب . ولكنها تستغل حبه للموسيقى وبراعتها فى العزف ، فتعزف الكثير وهما وحدهما ، فيظل مستمتعا فترة طويلة . أما حين يوجد معهما آخرون فانها تتحدث عن الحب بطريقة ملتوية تدق عن فهمه السطحى للغة الفرنسية ، ويظن الحاضرون أن بينهما من الحب أفانين وأفانين ، وانه عشيقها المتدله فى حبها ، والمتيمة بهواه !

وكان جميع الأصدقاء المقربين على علم بسر هذه الكوميديا ، أما المعارف فيجهلونها ، ولذا تجدد لديهم الاستنكار الشديد لسلوك فايلبرج ، فانسحب ثانية ، ولم يرض بالعودة .

واعتصمت فيليسى بالفراش ، وقالت لأمها انها ستمتنع هذه المرة عن الطعام حتى الموت ! وامتنعت عن

تناول أى شيء فيما عدا الشـــاى . وكانت تهبط فى مواعيد الطعام الى المائدة ، ولـكنها ترفض أن تتناول لقمة واحدة !

واستمرت الأمورعلىهذا الحال ستة أيام ، فمرضت، واستدعى الأطباء لاسعافها ، فصارحتهم انها تجرعت السم ، ولا تريد أى علاج ، وانه لم تعد هناك جدوى من الحياة ، فعلام العلاج ؟

وكان فى حجرتها مع الأطباء أمها وصديقان ، فقالت أمامهم انها تفارق الحياة بسبب حبها للمسيو فايلبرج الذىغير الواشون والعذالقلبه عليها فهجرها . ورجتهم ان يكتموا هذه الحقيقة المؤلمة عن زوجها ، الذى يجهل كل شيء لحسن الحظ !

ولـكنها فى النهاية رضيت أن تتناول دواء ، فسقاها الأطباء مقيئا ، واذا بتلك التى لم تعش الا على الشاى فحسب منذ ستة أيام تقىء من جوفهـا ما بين ثلاثة وأربعة ارطال من الشيكولاتة ! ولم يكد مرضها المميت ، والسم الذى تعاطته ، الا عسر هضم شديد . وكنت قد تنبأت بشيء من هذا القبيل !

ولم تدر فيليسى ماذا تصنع كى تؤثر على عواطف أمها وتدفعها الى مساع جديدة يمكن أن تعيد فايلبرج الى بيتها ، فهددتها بالافضاء بكلشيء الى زوجها شارل، الذى كان حريا أن يصدق كلام زوجته بحذافيره ، وأن يفارقها على الفور بلا مقدمات ... مع ما يترتب على ذلك كله من فضيحة ذات دوى مروع .

وهكذا عادت الأم الى مساعيها لدى فايلبرج الطيب ، الذى قبل مرة أخرى أن يعود . وكنت أراه فى تلك

الحقبة كثيرا ، ونشترك معا فى أعمال كثيرة ، وكان قد مال الى حتى صرت الفرنسى الوحيد تقريبا الذى يحب صحبته ، وهكذا كنا نقضى معا شطرا من كل يوم ، فيعلمنى اللغة السويدية ، وأعلمه الهندسة الوصفية وحساب التفاضل والتكامل لأنه كان قد أغرم فجأة بالرياضيات . وبعد الفراغ من ذلك أتناول فيولينتى وأعزف عليها ألحانا تروقه .

وعرفت فيليسى ذلك فصارت تتودد الى وتجتذبنى الى صالونها ، لعلمها ان ذلك سيجتذب اليه أيضا فايلبرج . وذات صباح ، ثلاثتنا نتناول الغداء معا عندها ، خيل اليها ان الفرصة مواتية لاظهار الحب لجوستاف أمامى ، فتصنعت من السلوك ما لايكون الا فى خلوة لا ثالث فيها ، وعندئذ رمقنى جوستاف بنظرة جانبية ، ولم يزد على التقام طعامه بفتور شديد . فاقترحت عليه بعد الغداء أن يساعدها على تثبيت شيء من زينتها وملابسها ، فأجابها بخشونة بالغة :

ــ لديك وصيفة ، فناديها لتقوم بهذه المهمة !

فهمست فيليسى عندئذ فى أذنى قائلة :

ــ أرأيت الى رقة شعوره ؟ لقد كنت واثقة انه لن يرضى أن يثبت دبوسا فى شعرى أمامك !

ولكنها فى الواقع لم تكن مسرورة لرقته المزعومة وتحفظه . واذكر ان ذلك كان فى يوم أحد الفصح ، وكنا نتناول الشاى بعد الانتهاء من الغداء ، فقالت لخادمها :

ــ قل لوصيفتى انى لم أعد بحاجة اليها وان فى وسعها الذهاب لحضور الصلاة فى الكنيسة .

وما أن خرج الخادم حتى اقتربت جدا من نيران المدفأة وقالت وهى تمد يدها الى فايلبرج : « أشعر ببرودة شديدة . انظر هل انا مصابة بارتفاع فى الحرارة ؟ »

ولـكن فايلبرج لم يتناول يدها ، بل قال :
ــ لا دراية لى بهذه الأمور ، ولـكن ها هو جونسلان (وأشار نحوى) الذى أعلم انه يقوم بتطبيب فلاحيه عندما يكون فى الريف ، ففى وسعه أن يتحقق من ذلك .
فجسست نبضها وقلت لها ان حرارتها طبيعيـــة ونبضها طبيعى جدا . فقالت :
ــ عجيب جدا . أشعر بوشك الاغماء . وأكاد أختنق . فك عنى ملابسى بسرعة يامسيو جوســـتاف . وأنت ياجونسلان أرجوك أن تذهب الى حجرة زوجى وتحضر ..
ــ ماذا أحضر ؟
ــ زجاجة الجاوى ، كى أحرق شيئا منها ليساعدنى فى التنفس .
فبادر فايلبرج بقوله :
ــ أنا أعرف مكانها . سأذهب أنا ، وليساعدك جونسلان .
وانفلت خارجا ، ولم يعد الا بعد نحو عشر دقائق .
وراقنى أن أفك عنها محزماتها ، وأزرار بلوزتها .
وكانت فيليسى اذا غضضنا النظر عن وجهها ذات جسم رائع ، وقد بديع التكوين ، وبشرة ناضرة غضة ناصعة البيــاض . وكشف عن نحرها وصـــدرها ، وكانت مستسلمة مستعدة فى اغمائها المزعوم أن تتركنى أجردها من ملابسها كلها ، ولكنى اكتفيت بذلك ، ورحت أدلك لها عنقها وصدرها فى رفق ، وقلت لها : « أفيقى . ان قلبك يدق بانتظام . فلا تخافى . وليس بك شىء »
ولكنها استمرت فى تصنع غيبوبة خفيفة . وواصلت اسعافاتى بالطبع ، الى أن عاد فايلبرج الذى فهمت انه تأخر عمدا . ولما قلت له ان نبضها منتظم ، وتنفسها أيضا ، هز كتفيه وقال : « من العجيب أذن أن تصاب بهذه الغشية ! »

ولما نفد صبرها ، تصنعت الافاقة رويدا رويدا ، ولملمت ثيابها ، ورجتنا أن نتركها وحدها ، فانصرفنا. وأحست فيليسى بالهوان الشديد مما أظهره فايلبرج نحوها من عدم مبالاة أمامى وأنا الذى كانت تقول له دائما ان فايلبرج عاشق متيم الى درجة الجنون ، وان هواه مندفع مندلع ، حتى انها مرضت فعلا. أما فايلبرج فلم يشأ بعد هذه المهزلة المضحكة أن يعود اليها ، ولكن بما أنها لازمت الفراش فترة من الزمن ، وكان يشاهد قبلها فى منزلها باستمرار، لذا قرر الظهور هناك تحاشيا للقيل والقال عن أسباب غيابه . ثم راحت زياراته تقل تدريجا ، بحيث انقطع تماما فى مدى ثمانية أشهر. وفى أثناء هذه الأشهر الثمانية لم تكف عن الايحاء للجميع بأنه عشيقها ، حتى بعد أن صارت زياراته لها نادرة .

وفيليسى شديدة الولع بالموسيقى ، ولما لم تكن لها مقصورة خاصة دائمة فى المسرح الموسيقى المعروف باسم « برف » ، لذا لم تكن تسنح لها الفرصة بالذهاب الى هناك الا نادرا جدا . وفى ذات يوم تكرم بعض الأصدقاء باقراضنا مقصورتهم الدائمة هناك لليلة واحدة ، فرتبت فيليسى الأمور بحيث نصحبها الى هناك أنا وفايلبرج ، على ان يلحق بنا زوجها فيما بعد . وكانت حريصة على حضور فايلبرج كى يظهر أمام الجميع معها فى صدر مقصورتها ، ولكن جوستاف لم يلبث أن قال ان المسرح شديد الحرارة ، وهو السويدى الذى لايطيق شدة الحر، وأصر على مغادرة المسرح ، وتركنى وحدى معها ... وكانت قد وصلتنى اشاعات فى هذه الفترة الأخيرة التى قلل فيها فايلبرج من زياراته أن فيليسى بدأت توحى للناس أنه خان عهدها ، وانني شخصيا صرت عاشقها الجديد ...

وذهبت اليها فى حجرتها ، وأبلغتها ما وصل الى سمعى وما لاحظته ، وأضفت الى ذلك اننى لا أريد أن يظننى الناس عشيقها من غير أن تكون لى مزايا هذا الوضع فعلا ، وأجلستها على ركبتى على حين غرة ، وكنت واثقا انها لا تريد حقا أن تتحول الاشاعة الى حقيقة ، فهى باردة العواطف فى واقع تكوينها وانما هى الرغبة بالتظاهر فحسب ، ولذا قاومت تظاهرى بمحاولة اغتصابها على هذه الصورة ، واستولى عليها فزع شديد خشية دخول أحد ــ ونحن فى وضح النهار ــ الى حجرتها فجأة من بين خدمها .. وراحت تناشدنى أن أتركها ، مؤكدة لى انها لم تحب أحدا سوى فايلبرج ، ولن تحب سواه أبدا . وأخيرا تخلصت منى ، ورنت الجرس ، فأقبل خادم كلفته باصلاح نيران المدفأة ، وتعديل وضع الستائر ، ثم احضار الشــاى ، فتركتها وانصرفت . ومنذ ذلك الحين يسود بيننا شبه خصام .

وعلمت انها تحدث كل من يريد الاصغاء لها بأنى وغد من طراز « اياجو » ، وانى منذ أمد طويل أكن لها هوى مجنونا ، واننى الذى دسست بينها وبين فايلبرج وأوغرت صدره عليها ، وأبرزت خطابات ودية كنت قد أرسلتها اليها فى رحلتى معها الى روما منذ ست سنوات ، مدعية انها تحوى اعترافات بالحب .

وهذا هو ياصديقى نمط من النساء يوجد فى الطبقة الثرية بفرنسا ، نمط بارد التكوين هامد الأعصاب .. ولكنه متمسك باشباع غروره « شفويا » اطة نفسه بعاشقين مزعومين ، لا تريد منهم الا اثارة ت ، دون ممارسة لمضمونها ، لأن قلبها لايعرف نبض الحب .

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

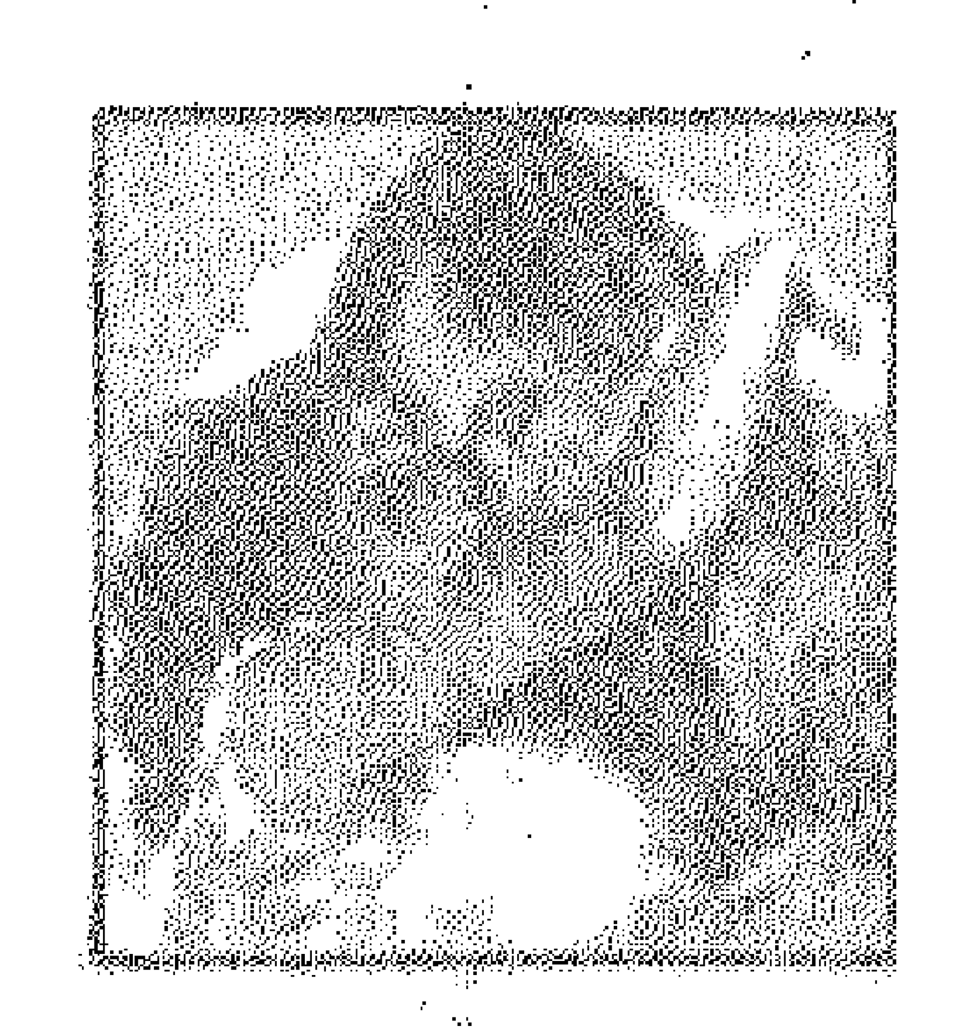
جدة ـ ص ٠ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشـــم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :

M. Miguel Maccul • Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL



هـذا الكتاب

ستندال أمير من أمراء النثر الفنى الفرنسى ، وله روائع فى القصة والرواية ، أشهرها « الأحمر والأسود » ، تعد من معالم الفن الروائى فى العالم ...

وهو فى هـــذا الكتاب يدرس الحب ، ويحلل نشأته ، وأطواره ، وأنواعه ، وما يتفرع عنه من مشـــاعر ، ويؤيد تحليلاته بمشاهدات واستشهادات كثيرة ممتعة . ثم يطوف بعدد من بلدان أوربا ، يقـارن بين أنواع الحب فيها ، ويسرد من الاقاصيص والامثلة الطريفة ما يعد زادا جميلا لمن يريد متعة الفن ، وزادا أجمل لمن يريد معرفة طبـــائع البشر ، واختلاف أمزجتهم باختلاف بيئاتهم الجغرافية والاجتماعية .

وفى هذا الكتـــاب نخبة طيبة منتقاة من هـــذه التحليلات والمشاهدات يحتاج اليها القارىء العصرى ليعرف الأصول الأولى لتلك الحركة النفسية الجياشة ، التى هى أهم ما يمر بحياة الانسان . ولئن تغيرت معالم الحب فى العصر الحديث ، كما تغيرت معالم كل شىء ، الا أن الحب الحقيقى الذى يحلم به كل انسان فى عصرنا ، ويبحث عنه ، وكثيرا ما يعتقد أنه غير موجود ـ هذا الحب كان محور حياة الناس منذ نصف قرن . وهو كالجواهر الحقيقية التى أقام لهـــا ســـتندال معرضا شائقا فى كتابه هذا .

وقد ترجمته وانتخبت ماساته لك كاتبة أدبية ، لهــــا خبرة طويلة بمشكلات القلوب ، ومجالات الفن الأدبى ، ومعروفة بأسلوبها الدقيق الواضح المشرق .

١٥ قرشـــا